

ابن عبد ربّه الحفيد هل هو مؤلف كتاب الاستبصار ؟

محمد ابن شريفة

من المعروف أن اسم المغرب قد برز بروزا قويا وأن نفوذه قد انتشر انتشارا كبيرا وأن صيته قد ذاع ذيوعا عظيما مع قيام دولة المرابطين ونشأة ما يعرف بالأمبراطورية المغربية في عهد هذه الدولة ثم في عهد دولة الموحدين التي خلفتها.

وقد كان من نتائج كل ذلك انفتاح المغرب على غيره من البلدان — ولا سيما الواقعة على حدوده — من جهة، واهتمام هذه البلدان به من جهة أخرى.

ويظهر هذا الاهتمام وذلك الانفتاح في نشأة نوع من الأدب جَلَّى فيه المغاربة واشتَهِرُوا به حتى ليكاد يقترون بهم، وينتسب إليهم، وهذا النوع هو أدب الرحلات أو الأدب الجغرافي، ولعلّ أقدم رحلة مغربية مدوّنة هي «ترتيب الرحلة» لأبي بكر ابن العربي دفين فاس الذي رحل مع والده إلى المشرق وزار بلدانا عديدة ولقي أعلاما كثيرين، ثم عاد إلى بلده بعلم غزير، ونحن نعتبر هذه الرحلة مغربية لأن صاحبها كان خلال رحلته وبعدها في خدمة المرابطين. وإذا كنا نفتقد الآن هذه الرحلة بكاملها فقد بقي لنا تجريدتها وتلخيصها⁽¹⁾، كما أن لدينا عددا لا بأس به من كتب الرحلات والبلدان التي ألّفت في عصر ابن العربي أو بعده بقليل أي في آخر عصر المرابطين وأوائل عصر الموحدين، ونذكر منها كتب البكري والعذري والزهرري والرشاطي وابن غالب وابن جبير وابن سعيد وغيرهم.

وهذه الكتب تعكس كما ذكرت في البداية انفتاح المغرب على غيره، واهتمام غيره

ومن أمارات ذلك أن عددا من هذه الكتب والرحلات البلدانية ألف برسم ملوك ووزراء ورجال دولة أو باقتراح منهم، فقد ألف اليعسع ابن حزم كتابه «المغرب، في محاسن المغرب» لصالح الدين الأيوبي، وأهدى ابن دحية السبتي كتابه «المطرب» للملك الكامل، ووضع عبد الواحد المراكشي كتابه «المعجب» بإشارة من أحد وزراء الدولة العباسية، وألف أبو حامد الغرناطي كتابه «المغرب» للوزير عون الدين ابن هبيرة.

وقبل هذا التاريخ ألف محمد بن يوسف الورّاق للحكم المستنصر الأموي كتابا في مسائل إفريقية وممالكها وأخبار الإمارات المغربية التي كانت بالبصرة والنكور وسجلماصة وغيرها، وكان الخليفة المذكور يستكتب سفراء برغواطة وسجلماصة الوافدين على قرطبة ويستدعي منهم وضع ما يشبه «التقارير» في وصف بلدانهم وشرح أحوالهم، ولا بد أن تلك الكتابات كانت ذات نفع لهذا الخليفة العالم في السياسة التي سلكها هو والمنصور بن أبي عامر من بعده تجاه العدو.

وينطبق مثل هذا على ما ألفه الإدريسي لرجار الصقلي، وعلى ما كتبه في عصر متأخر عن هذا الوزان للبابا.

وعلى الأجمال فقد غدا الاهتمام بالجغرافيا في العصر الذي نحن بصدد كبرها، وكان لبعض خلفاء الموحدين وأمراءهم ذوق جغرافي وميل إلى كتب البلدان، ظهر في كثير من ملاحظاتهم ومحاطباتهم ومجالسهم، وكانت تُهدى إليهم رسائل بلدانية، كما أنهم قاموا بأعمال كان لها أثر في تشجيع الرحلات والأبحاث الجغرافية⁽²⁾. وأصبحت قراءة كتب البلدان هواية لمن يريد أن يعرف أحوال الدنيا دون أن يتجشّم مشقة السفر، وقد عبّر عن هذا المعنى أحد أهل هذا العصر وهو ابن المناصف الذي يقول في كتاب جغرافيا مثل الكتاب الذي سنعرض له :

سَافِرٌ بِلَا زَادٍ وَلَا مَرْكَبٍ	مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ إِلَى الْمَغْرِبِ
وَحُضٌّ بِحَارًا طَالَمَا غَرَبَدَتْ	أَفْوَاجُهَا يَوْمًا عَلَى مَرْكَبٍ
وَجَبُّ قِفَارًا لَيْسَ نَعْيًا بِهَا	فِي جَبَلٍ وَغَرٍّ وَلَا سَبَبٍ
بِهِ الدُّنْيَا الَّتِي سَهَّلَتْ	سَبْلَ الْمَسَافَاتِ فَلَمْ تُصْغَبِ ⁽³⁾

ويندرج في سياق هذه الكتب الجغرافية التي غدت طرائف تهدى، وغرائب تطلب، كتاب الاستبصار موضوع هذا العرض، فقد طرّزه صاحبه باسم أحد أشياخ الموحدين وورد اسمه في ديباجة النسخة المطبوعة كما يلي :

«الشيخ الأجل المعظم الأغر الأسنى الأجد المكرم أبو عمران بن الشيخ الأرفع المرحوم أبي يحيى بن وقتين»⁽⁴⁾ بينما خلت نسخة الأستاذ المرحوم المختار السوسي من

هذا الاسم، ولم نصل بعد البحث إلى شيء نطمئن إليه في أمر هذا الشيخ الموحي. أما مؤلف كتاب «الاستبصار» فيعتبر مجهولا، وشأنه في ذلك شأن أصحاب مدونات تاريخية وجغرافية مغربية وأندلسية أخرى⁽⁵⁾، وقد وقع النقل عن الاستبصار في «الأنيس المطرب» لأبن أبي زرع⁽⁶⁾ وجذوة الاقتباس لابن القاضي⁽⁷⁾ و«جنى زهرة الآس» للجزنائي⁽⁸⁾ ولكن دون ذكر لمؤلفه أو تسميته، وربما دل ذلك على أن النسخة التي نقل عنها المؤلفون المذكورون كانت خالية من اسم المؤلف مثل النسخ الموجودة من الكتاب لحد الآن.

ولقد حاول بعض الباحثين أن يستنتجوا من اشارات واردة في الكتاب بعض ما يدل على هذا المؤلف المجهول ومنهم الأستاذ محمد الفاسي الذي رجّح أنه كان مغربيا وذكر أنه «كان لاشك يُقيم بفاس لما جمع كتابه هذا سنة سبع وثمانين وخمسمائة» ثم قال بعد ذلك : «وعلى كل حال فسواء كان من أهل المغرب أولا إلخ»⁽⁸⁾ وليس في هذا كله رأي قاطع كما هو واضح. وذهب الأستاذ محمد المنوني إلى أن صاحب «الاستبصار» «من نشأ بالمغرب» بل قرّر «أن مؤلف «الاستبصار» ليس من أهل المغرب فحسب بل من حفاظ الموحدين»⁽⁹⁾ وقد استنتج هذا كله مما جاء في حديث المؤلف عن الصهريجيين اللذين أنشأهما عبد المومن اذ يقول : «كنا في تلك المدة، نعوم فيهما، فلا يكاد القوي منا يقطع الصهريج إلا عن مشقة، وكنا نتفاخر بذلك»⁽¹⁰⁾.

ومع احترامي لاستنتاج الأستاذ المنوني فإني لا أظن أن النص المذكور يؤدي صراحة إلى ذلك، فطلبة الموحدين وحفاظهم كان بينهم أندلسيون بل أن منصب شيخ طلبة الحضر أسند إلى عدد من الأندلسيين. ثم ان القراءة المتأينة للكتاب تقودنا إلى نقيض هذا الاستنتاج، وهو أن مؤلف الكتاب أندلسي عاش في الأندلس قبل أن ينتقل منها إلى خدمة الموحدين، وهذا ما يدل عليه مثلا قوله عند الحديث على شجر الهرجان : «وثمرته تشبه الاجاص المعروف عندنا بالعبر»⁽¹¹⁾، ولكي أحدد كلمة «عندنا» هذه سألجأ إلى كاتب مغربي هو ابن غازي الذي يقول في «الروض الهمتون» متحدثا عن فواكه مكناسة الزيتون : «فيها أنواع كثيرة من الهلالج المسمى بغرب الأندلس العبر، ويسمونه البرقوق... وفيها المشمش المسمى بالاندلس البرقوق»⁽¹²⁾.

وأرى أن كلمة «عندنا» في النص المذكور تساوي : غرب الأندلس، وربما يؤكد هذا أيضا قوله متحدثا عن حيوان يشبه الفيل في بلاد قلوبو بالسودان الغربي : «ويصطادونه فيأكلون لحمه ويصنعون من جلده الأسواط التي تسمى السرياقات، ويقال لها بالأندلس : دَب الهمار»⁽¹³⁾. ويمكن أن نستأنس في ذلك أيضا بقوله في

وصف منعة قسنطينية : «ومدينة قسنطينة حصينة في نهاية من المنعة والحصانة، لا يُعرف بأفريقية أمنع منها، ليس لها في المنعة نظير غير مدينة رندة بالأندلس، فإنها تشبهها في وضعها والخندق المحيط بها والخافة المحدقة بها شها كبيرا ولكن قسنطينة أعظم وأكبر وأعلى»⁽¹⁴⁾. فهذه المقارنة لا تتأتى إلا لمن شاهد البلدين.

وثمة اشارات أخرى — دون ما ذكرت — في الدلالة على أندلسية الرجل كاستعماله بعض الألفاظ مثل قُور للحسكة أو الشمعدان والجوف بمعنى الشمال والبنائق لشكل في التفصيل والخياطة والسلق لنوع من النبات والخضر والشرابيب للنوافذ وإنما استعملت القيد لأن هذه الكلمات في الواقع تعتبر أندلسية ومغربية⁽¹⁵⁾، ولكننا عندما نقرأ قوله في توقيت ليلة كسر الخليج في مصر : «وهي لعشر تمضي من كانون الآخر، وهو بلغة الروم ينير» نرجع الاستعمال الأندلسي فالروم أو العجم كانوا بالأندلس لا في المغرب.

أما الدكتور سعد زغلول عبد الحميد محقق الكتاب فقد كتب على صفحة غلافه مايلي : «لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري» ثم ذهب في مقدمة الكتاب إلى أبعد من هذا فظن أن المؤلف هو ابن محشرة⁽¹⁶⁾ وليس له من دليل إلا ورود فقرة من رسالة خاطب بها يعقوب المنصور أهل المغرب من حامة مطماطة ببلاد الجريد عند هزمه للميورقي، وهي من انشاء الكاتب المذكور. ويكفي في استبعاد هذا الظن الذي لا يقوم على أي أساس أن نعيد ما انتهينا إليه من أن المؤلف أندلسي، وأن نذكر بأنه عرف مراكش منذ عهد عبد المومن، أما ابن محشرة فهو بجائي لم يولد إلا سنة 641 هـ ولم يلتحق بخدمة الموحدين إلا في آخر دولة يوسف بن عبد المومن، ثم ان في الكتاب مادة كبيرة عن بجاية، فلو كانت لابن محشرة صلة بالكتاب لما فاتته الإشارة إلى أنه من هذه المدينة مثلاً.

واذ قد حددنا تقريبا نسبة المؤلف فلننظر في بقية الاشارات المتعلقة به في الكتاب :

يذكر جامع «الاستبصار» في ص 104 أنه كان في الاسكندرية عند هجوم المراكب الصقلية عليها في العاشر من محرم سنة 570 هـ.

ويتحدث في ص 111 عن أحداث وقعت عام 583 هـ وعام 586 هـ ثم يقول : «ونحن الآن في شهر رجب الفرد سنة 587 هـ وكلمة التوحيد والهداية في بلاد الصحراء متصلة من طرابلس إلى مدينة غانة وكوكو»، وكرر هذا التاريخ عند الحديث على مكناسة.

وفي ص 123 يتحدث عن مواجل قرطاجنة (قرطاج) فيقول : «وقد دخلتها بالنهار مع أصحاب لي فرأيت منظرا هائلا، من تكلم فيها بأدنى كلمة يسمع لها دوى عظيم» ثم يسترسل في وصفها وعد صهاريجها وذكر مقاييسها. كما أن حديثه عن بجاية من ص 128 إلى 131 هو حديث من شاهدها وعاش فيها.

وعند الحديث عن مدينة تبسا يصف آثارها الرومانية ثم يقول : «ولقد دخلتها فأعطاني انسان من أهلها طلسمًا وهو على صورة أسدين من نحاس أحمر، عجز الواحد منهما إلى عجز الآخر، قد صورًا بأعجب ما يكون من التصوير» (ص 162).

ويقول عند الحديث على مدينة طبنة : «لقد رأيت فيها بيتا له عضادتان من حجرين مثل جيلين وعليهما عتبة من حجر واحد مثل الجبل الضخم قد قربصت ونقشت على النوع الذي يعمل عندنا في العود» (ص 164).

ويقول عن قسنطينة (ص 166) : «وهذه المدينة من عجائب العالم، قد دخلتها مرارا وتأملت آثارها، ودخلت مواضع كثيرة فيها آثار للأول فتأملتها، وكان لي في ذلك غرض».

وفي أثناء وصفه لجبل فازاز يقول (ص 187) : «وفيه خشب الأرز العتيق العالي، وهي مأوى القردة، عاينتها تثب من الأرزة للأخرى وهي في الجو الأعلى» .

هذه جملة من الاشارات التي يتحدث فيها جامع كتاب «الاستبصار» عن نفسه، وأقول جامع الاستبصار لأن هذا الكتاب يتألف من طبقتين كلاميتين أو متنين ملفقين⁽¹⁶⁾ : أحدهما يُبدأُ بعبارة : قال المؤلف، والمقصود به في الغالب البكري في كتاب المسالك والممالك، أما المتن الثاني فيأتي بعد الأول في مرات متعددة وهو يبدأ بعبارة : قال الناظر، وهذا الناظر هو الذي سنحاول معرفته بعد قليل.

أما بعد فإن مادفعني إلى اثاره الحديث حول كتاب الاستبصار بعد أن تناوله بعض الدارسين منذ قرن وربع هو أنني وجدت التاجروتي في رحلته «النفحة المسكية في السفارة التركية» يعتمد في وصف البلدان التي توقفت بها السفينة التي حملته من تيطاوين إلى اسطنبول على من يسميه ابن عبد ربه، وهذه البلدان التي وصفها نقلا عن المذكور هي : ترغا التي لا تبعد كثيرا عن تيطاوين وقد وقفت بها السفينة وقوفاً اضطراريا ثم وهران، ومستغانم وتنس والجزائر وبجاية وبونه وبنزرت وتونس وقابس وسوسة.

وقد استعمل التمجروقي في هذه النقول عبارة : «قال ابن عبد ربه» سبع مرات، وعبرة : «هكذا ذكر ابن عبد ربه» مرة واحدة، وعبرة : «قال ابن عبد ربه في العقد» أو «قال ابن عبد ربه في عقده» ثلاث مرات⁽¹⁷⁾.

فمن ابن عبد ربه هذا الذي نقل عنه التمجروقي ؟

وما الكتاب الذي نقل منه ؟

أما ابن عبد ربه فلاشك أنه غير أبي عمر أحمد ابن عبد ربه القرطبي مؤلف العقد المشهور، إذ أن هذا لا يعرف له كتاب في جغرافية البلدان ولم تكن له رحلة خارج الأندلس⁽¹⁸⁾.

وصحيح أن الزبرجدة الثانية في العقد تشمل على شيء من وصف البلدان ولكن ليس فيها ذكر للبلدان الواردة عند التمجروقي، على أن بعض الفقرات الواردة في هذه الزبرجدة هي مدسوسة كوصف حمام الحرم المكي الذي يدل على المشاهدة وكذلك وصف مسجد منى بأنه أكبر من جامع قرطبة وتشديد أبواب المسجد النبوي بأبواب المسجد الجامع في قرطبة وغير هذا من الفقرات التي توجد في بعض طبعات العقد مثل الطبعة الأميرية⁽¹⁹⁾. فهل كان التمجروقي ينقل عن نسخة من نسخ العقد التي تشتمل على مثل هذه الفقرات المقحمة على الكتاب ؟

لا أظن ذلك، وإنما أميل إلى أنه نقل ما نقل عن كتاب بلداني وجد على غلافه أنه لابن عبد ربه، فتوهم أنه صاحب العقد أو تكون زيادة «في العقد» وفي «عقده» التي وردت في «النفحة المسكية» من قبيل سبق القلم كما يقال.

ومهما يكن الأمر فاني لما رأيت نقول التمجروقي البلدانية عن ابن عبد ربه اتجه حدسي إلى كتاب «الاستبصار» ورحت أقابل بين النقول المذكورة وبين مثيلاتها فيه فلم أجد تطابقا حرفيا ولكنني وجدت تشابها في المادة وتقاربا في العبارة وهذا مثال على ذلك، جاء في «النفحة المسكية» خلال الكلام على مرسى بونه ما يلي : «قال ابن عبد ربه : ويطل على بونه جبل كثير الثلج، وفيه مسجد لا يصيبه شيء من ذلك الثلج وان عم الجبل»⁽²⁰⁾ ونجد هذه الفقرة في «الاستبصار» على النحو التالي : «ويطل على مدينة بونه جبل وهو كثير الثلج والبرد، ومن العجائب أن فيه مسجدا قديما لا ينزل عليه شيء من ذلك الثلج فاذا عم الثلج الجبل كله رأيت المسجد وسطه كأنه شامة»⁽²¹⁾. فالنصان هنا متقاربان في الفحوى وان اختلفا قليلا في اللفظ، أما في المواضع الأخرى التي أشرت إليها آنفا فان المقابلة فيها لا تخلو من فروق، ويمكن أن نعزوها إلى أحد أمرين :

الأمر الأول أن يكون التمجروتي نقل بتصرف في اللفظ، وهذا أمر شائع عند المؤلفين الأقدمين.

أما الأمر الثاني فهو أن يكون التمجروتي قد نقل عن نسخة من الاستبصار غير النسخ التي بين أيدينا. ونحن نلاحظ أن النسخة التي يوجد مكرُوفلم منها في الخزانة العامة بالرباط تختلف في مواضع عديدة عن النسخ التي اعتمدها الدكتور سعد زغلول كما تبين لي بعد المقارنة، وسأعود إلى هذه النقطة بعد قليل، وقد نقل ابن أبي زرع والجزنائي⁽²²⁾ عن «الاستبصار» حكاية الفاس التي تذكر في سبب تسمية فاس، ولا وجود لها في النسخ التي وقفنا عليها.

ومهما يكن من أحد الأمرين فقد تبين لي مما نقله التمجروتي عن البكري وأبي البقاء البلوي وابن بطوطة أنه لا يتقيد بالنقل الحرفي وأنه ينقل بتصرف، وهذا صنيع عدد من المؤلفين الأقدمين.

وأبدأ بعد هذا بمناقشة الافتراض الذي أريد أن أذهب إليه، وهو أن أوصاف البلدان التي أوردها التمجروتي في النفحة المسكية منسوبة إلى ابن عبد ربه هي من نسخة من كتاب «الاستبصار» كان عليها اسم مؤلفها المذكور فيما نفترض، ولكننا نتساءل مع هذا عن السبب في عدم ذكره اسم الكتاب واكتفائه بذكر اسم المؤلف، أما ذهاب التمجروتي إلى أن صاحب الكتاب المنقول عنه هو ابن عبد ربه صاحب العقد فهو إما من قبيل الجهل أو من باب السهو وسبق القلم.

فمن يكون اذن ابن عبد ربه هذا الذي نفترض أنه جامع كتاب «الاستبصار»؟ إني عندما قرأت هذا الاسم الذي ينقل عنه التمجروتي فكرت مباشرة في كاتب يعرف بهذا الاسم لم تكن له شهرة جده الأعلى صاحب العقد وان كان لا يقل عنه، وهذا الكاتب هو أبو عُمر (أو أبو عبد الله) محمد ابن عبد ربه الذي خدم دولة الموحدين في دورها الأول على عهد الخلفاء الأربعة الأول: عبد المومن ويوسف ويعقوب ومحمد الناصر، وقد تحدث عبد الواحد المراكشي في «المعجب» عن هذا الكاتب حديث الصديق الوامق لصديقه أو الطالب المعجب بأستاذه، ويقع حديثه عنه في أربع صفحات تضمنت معلومات قيمة عن ابن عبد ربه الحفيد واشتملت على ذكريات ممتعة لما كان بين الأديبين في اشبيلية ومراكش، وقد روى عبد الواحد عن أستاذه وصديقه طائفة من أشعاره وأخباره، وكان يترحم عليه كلما ذكر اسمه⁽²³⁾.

ونجد ترجمة ابن عبد ربه هذا أيضا في «تحفة القادم» لابن الأبار⁽²⁴⁾، وقد نقلها عنه بلفظها الصفدي في «الوافي بالوفيات»⁽²⁵⁾، وترجم به ابن سعيد في «المغرب»⁽²⁶⁾

وذكره في مملكة مالقة كما نقل عنه في قسم غير منشور من هذا الكتاب وصفاً للجزيرة صقلية⁽²⁷⁾، ومن عرفوا بابن عبد ربه كذلك ابن عبد الملك المراكشي في كتابه «الذيل والتكملة»⁽²⁸⁾، وكلام ابن عبد الملك فيه معلومات جديدة عن الرجل، وقد نقله ابن الخطيب في «الإحاطة»⁽²⁹⁾ لأن ابن عبد ربه ولي خطة الإشراف في غرناطة، وتحدث المقرئ في «نفح الطيب» مرتين⁽³⁰⁾ عن ابن عبد ربه وذلك في باب (من رحل من الأندلسيين إلى المشرق)، وفي كلتا المراتين جلب المقرئ أخباراً وأشعاراً من مصادر لم يذكرها ونعرف بعضها مثل «المعجب» ولا نعرف الآن بعضها الآخر، ومن مظان ترجمة ابن عبد ربه كتاب «أعلام مالقة» لابن عسكر وابن خميس ولكن الموجود من هذا الكتاب لا يشتمل على ترجمة صاحبنا ووردت الإشارة إليه فيه مرتين⁽³¹⁾، ونظن أن ابن عبد الملك اعتمد على الترجمة التي لم تصل إلينا في أعلام مالقة المخطوط.

إن هذه المصادر تتفق في أشياء وتختلف في أشياء أخرى وهي في جملتها يكمل بعضها بعضاً.

فبعد الواحد المراكشي وابن الأبار والصَّفدي وابن سعيد والمقرئ في ترجمته الأولى يقتضرون في اسمه على محمد ابن عبد ربه، وهكذا وردت الإشارة إليه في «أعلام مالقة»، أما ابن عبد الملك فقد ذكر اسمه كما يلي : محمد بن علي بن محمد ابن عبد ربه، وهكذا نقله ابن الخطيب في «الإحاطة»، ويقرب من هذا قول المقرئ في الترجمة الثانية : «ومنهم الوزير أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الأجل أبي الحسن ابن عبد ربه» وكنية أبي عبد الله نجدها في «النفح» و«المعجب» و«المغرب» لابن سعيد بينما نجد في «الذيل والتكملة» و«أعلام مالقة» و«تحفة القادِم» و«الوافي بالوفيات» كنية أبي عمر، وكما اختلفت المصادر المذكورة في هذه الكنية اختلفت في بلدته فذهب عبد الواحد المراكشي إلى أنه من الجزيرة الخضراء، وقال ابن الأبار : سكن مالقة، وحكى ابن عبد الملك أنه مالقي فيما يقال، وعدّه ابن سعيد في المغرب في أعلام مالقة، وكذلك ابن الخطيب الذي تصرف في عبارة ابن عبد الملك فقال : من أهل مالقة، وذكر المقرئ القولين.

وقد نص عبد الواحد المراكشي وابن سعيد على أن الرجل من ولد أبي عُمَر أحمد ابن عبد ربه، وسكتت المصادر الأخرى عن هذه النقطة، ومن الغريب أن ابن عبد الملك نسبته إلى تجيب وتبعه ابن الخطيب في ذلك، وهذا لا يستقيم مع قول الذين جعلوه من حفداء ابن عبد ربه صاحب العقد، إذ من المعروف أن الجدد الأعلى لهذا وهو سالم كان من الموالي.

ومهما يكن من أمر فإن ما يهمننا هنا هو أن المصادر السابقة تتفق على أن صاحبنا رحل إلى المشرق، وأنه تقلّد وظائف مختلفة، وأنه قاسى كثيرا في الأسفار، وقد تحدّث ابن سعيد عن تدوين لابن عبد ربه في رحلته المشرقية سماه مرة رسالة فقال : «وله رسالة في صقلية(?) ذكر فيها ما جرى له بمصر»⁽³²⁾ وسماه مرة أخرى كتابا ونقل عنه وصفا دقيقا لجزيرة صقلية وقد بدأه هكذا : «من كتاب ابن عبد ربه في رحلته»⁽³³⁾ وذكر هذه الرحلة المقرّي كذلك فقال : «له رحلة إلى الديار المصرية صنع فيها مقامة»⁽³⁴⁾ ونقل منها بيتين، وأتى في موضع آخر بكلام مفصّل حول رحلة ابن عبد ربه هذا نصه :

«حدّث الشيخ الأجلّ أبو عبد الله محمد بن علي اليحصبي القرموني رفيقه (أي رفيق ابن عبد ربه في رحلته) قال :

اصْطَحَبْتُ مَعَهُ فِي الْمَرْكَبِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، فَلَمَّا قَرَبْنَا مِنْهَا هَاجَ عَلَيْنَا الْبَحْرُ وَأَشْفَيْنَا عَلَى الْعَرَقِ، فَلَا حَ لَنَا وَنَحْنُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ مَتَارُ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، فَسَرَرْنَا بِرُؤْيَيْهِ وَطَمِعْنَا فِي السَّلَامَةِ، فَقَالَ لِي : لَا يَدُّ أَنْ أَعْمَلَ فِي الْمَنَارِ شَيْئًا، فَقُلْتُ لَهُ : أَعْلَى هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا، فَقَالَ نَعَمْ، فَقُلْتُ فَاصْنَعْ، فَأَطْرَقَ ثُمَّ عَمِلَ بِدِيهَا :

لِلَّهِ دُرُّ مَنَارِ اسْكََنْدَرِيَّةَ كَمْ	نُسْمُو إِلَيْهِ عَلَى بُعْدٍ مِنَ الْحَقِّ
مِنْ شَامِخِ الْأَنْفِ فِي عَرْنِيهِ شَمَمٌ	كَأَنَّهُ بَاهِتٌ فِي دَارَةِ الْأَفْقِ
يُكْسِرُ الْمَوْجَ مِنْهُ جَانِبِي رَجُلٌ	مُشَمَّرُ الذِّلِّ لَا يَخْشَى مِنَ الْعَرَقِ
لَا يَرِخُ الذَّهْرَ مِنْ وَرْدٍ عَلَى سَفْنٍ	مَا يَبْنِي مُصْطَبِحٌ مِنْهَا وَمُعْتَبِقٌ
لِلْمُنْشَآتِ الْجَوَارِي عِنْدَ رُؤْيَيْهِ	كَمْ مَوْقِعِ النَّوْمِ مِنْ أَجْفَانِ ذِي أَرْقٍ» ⁽³⁵⁾

وربما تدل هذه الاشارات على أن خط رحلة ابن عبد ربه كان شبيها بالخط الذي وصفه ابن جبير في رحلته، وهو خطّ بحريّ كانت تسير فيه مراكب جنوية في الغالب، واستعمله حجاج أندلسيون، وكان يذهب من موانيء الأندلس والمغرب المتوسطة إلى الاسكندرية عبر صقلية⁽³⁶⁾.

وإذا ثبت أن ابن عبد ربه هذا هو جامع كتاب الاستبصار فإن رحلته سابقة على رحلة ابن جبير، وقد جاء في الكتاب المذكور ما نصه : «قال الناظر (وهو في افتراضنا ابن عبد ربه) : هذه المدينة الاسكندرية يطمع فيها عدو صقلية أبداً ويخسر

مراكبه بأهوال تصيبه عليها، فمنها ما أدركته عشية العاشر من محرم عام 570 هـ وذلك أنه احتفل في مراكب كثيرة ونزل في ساحلها وحصن على نفسه بما قدر، فما كان إلا أن عزم على المقارعة حتى صاح في الأعداء صائح، وصرخ بينهم صارخ، فولّوا مدبرين، وقتل بعضهم بعضا والحمد لله رب العالمين»⁽³⁷⁾.

وهذه الحادثة التي شهدتها هذا «الناظر» والتي تلاقت عبارته في أن النصر فيها كان «رمية من غير رام» كما يقول في وصفها القاضي الفاضل، ذكرها عدد من المؤرخين بتفصيل⁽³⁷⁾.

ونحن نعتبر النص المذكور من القرائن التي تجعل افتراض نسبة كتاب الاستبصار إلى ابن عبد ربه افتراضاً قائماً فقد ذكر ابن عبد الملك ثم ابن الخطيب أن ابن عبد ربه زار الاسكندرية واتصل خلال مقامه بها بعلمائها، وعلى رأسهم قاضي البلد يومئذ وهو أبو عبد الله محمد ابن منصور الحضرمي الصقلي الاسكندراني المالكي، وهو من بيت علم ورواية، كان جده وأبوه وأخوه كلهم علماء، وقد مات سنة 589 هـ⁽³⁸⁾. وإن عبارة ابن عبد الملك التي يقول فيها: «لَهُ رَحْلَةٌ سَمِعَ فِيهَا بِالْأَسْكَندَرِيَّةِ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَنْصُورٍ وَغَيْرِهِ» تجعلنا نعتقد أنه أخذ عن بقية الأعلام المشهورين في الاسكندرية في هذا التاريخ ومنهم أبو الطاهر إسماعيل ابن عوف (ت 581 هـ) وأبو القاسم مخلوف بن علي بن جاره المغربي الأصل (ت 583 هـ) وهؤلاء الأعلام من الأئمة الذين نشروا الفقه المالكي وعضدوا المذهب السني في الاسكندرية ومصر بعد الغاء صلاح الدين لدعوة الفاطميين.

وفي ترجمة أبي الربيع سليمان الموحي التي نقلها جامع كناش «واسطة العقدين» أنه «أجاز له من الاسكندرية الإمامان أبو الطاهر ابن عوف وابن جاره» ونحن نظن أن الذي حمل هذه الإجازة إلى أبي الربيع هو كاتبه ابن عبد ربه⁽³⁸⁾ ونُشِرَ كذلك إلى أنه في سنة 570 هـ. كان يوجد بالاسكندرية أندلسيون ومغاربة آخرون منهم المؤرخ اليسع بن عيس وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن التجيبي، وهما من الآخذين كذلك عن أبي الطاهر السلفي وأبي الطاهر ابن عوف وأبي عبد الله محمد ابن منصور⁽³⁹⁾، وتتبع الآخذين عنهم من الأندلس والمغرب يخرج بنا عن الموضوع.

وقد أقام ابن عبد ربه كذلك في القاهرة واتصل بأدبائها وشعرائها، وأشهرهم يومئذ ابن سناء الملك. قال صاحب المعجب: «وَلَهُ رَحْمَةُ اللَّهِ رَحْلَةٌ إِلَى مِصْرَ لَقِيَ فِيهَا ابْنَ سَنَاءِ الْمُلْكِ وَأَخَذَ عَنْهُ شِعْرَهُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَمِعْتُهُ يَذْكُرُهُ عِنْدَنَا وَيُرْوِي

شعره»⁽³⁹⁾، وذكر المقرئ بيتين وردا في مقامة صنعها في وصف مصر، ويبدو أنَّهما في وصف جزيرة الروضة الواقعة في وسط النيل، ولو وصلتنا هذه المقامة أو الرسالة التي وصف فيها ما جرى له بمصر، وحذر فيها من الأسفار لعرفنا سبب هذه الرحلة وطبيعتها، وأغلب الظن أنها كانت رحلة سفارية، وقد كانت بواعث السفارات إلى مصر موجودة إذ أصبحت مصر على حدود امبراطورية الموحدين، وكان قراقوش الأرمني — وهو غير قراقوش المشهور — قبل استسلامه يثير الشغب على هذه الحدود مدفوعاً من سيده ومولاه تقي الدين الأيوبي ممدوح ابن سناء الملك. ولهذا وغيره كانت العلاقة بين الأيوبيين والموحدين مشوبة بالحذر والتوتر في البداية، ثم كانت الدعوة والرغبة في التعاون لرد هجمات الصليبيين في المشرق والمغرب. ولهذا استقبل بلاط الموحدين سفيرين من مصر فيما هو معروف، أولهما شمس الدولة عبد الرحمن بن محمد ابن منقذ وقد أشار صاحب «الاستبصار» — وهو ابن عبد ربه فيما نقدر — في سياق حديثه عما وقع في الاسكندرية وغيرها من فتوحات إلى قدوم المذكور على رأس سفارة إلى المغرب عام 587 هـ كما تحدثت مصادر أخرى عن هذه السفارة بتفصيل.

أما السفير الثاني فهو تاج الدين عبد الله بن عمر المشهور بابن حمويه السرخسي وسفارته مشهورة ومدونة⁽⁴⁰⁾.

ونحن نقدر أن الموحدين بعثوا هم أيضا سفراء إلى صلاح الدين، وربما كان ابن عبد ربه الحفيد أحدهم وثمة قرائن مختلفة تشير إلى أن وجوده في مصر كان للقيام بمهمة سفارية⁽⁴⁰⁾، وذلك لأن رحلته لم تكن لطلب العلم أو بنية الحج، كما أنه كان مصحوباً بوفد أو شبه وفد حسبما يستفاد من نفح الطيب.

لقد ذكرنا فيما سبق أنه مر بجزيرة صقلية وأنه وصفها في كتاب رحلته، وها هو وصفه لها كما نقله ابن سعيد في «المغرب» :

«صقلية جزيرة منقطعة في البحر، شكلها مثلث حاد الزوايا : زاوية شمالية، وفيها مدينة مسيّني المشهورة بكثرة العنب والخمر، وهناك المجاز الضيق إلى الأرض الكبيرة أكثر ما يكون قدر ستة أميال، وزاوية قبليّة وفيها باشنو، وهو الموضع الذي يلي بر طرابلس من إفريقية. وزاوية غربية وفيها مدينة طرابنش. والجبل الذي فيه بر كان النار في جزيرة منقطعة أجرد لا يُثبت حُضرة. وذكر أن صقلية كثيرة الزلازل تتهدم منها مبانيها»⁽⁴¹⁾.

وهذا الوصف الدقيق مما يقوّي عندنا أن ابن عبد ربّه هذا هو جامع كتاب «الاستبصار»، ويبدو هذا لمن يقارن بين الوصف المذكور وبين ما يجيء في كتاب «الاستبصار» بعد عبارة «قال الناظر».

وإذا كنّا نقدر أن ابن عبد ربّه كان في الاسكندرية عام 570 هـ فإننا لا نعرف التاريخ الذي زار فيه صقلية. ونظن أن زيارته لهذا البلد كانت — كزيارته لمصر — لأسباب سفارية، ومن المعروف أنه كانت هناك علاقات حرب تارة وعلاقات سلم تارة أخرى بين المغرب وصقلية وتدل عليها الرسائل المتبادلة بين الطرفين، وهي منشورة.

ويخيل إلينا أن رحلة ابن عبد ربّه السفارية إلى صقلية كانت في أعقاب حادثة سجلتها المصادر المسيحية ولم تشر إليها المصادر العربية، وهي أن الأسطول الصقلي اعترض حوالي 1180 م طريق سفينة مغربية على ظهرها بنت للخليفة يوسف بن عبد المومن كانت متوجهة إلى إفريقية حيث يوجد الأمير «خطيبها» وتقول المصادر المذكورة إن الأميرة الموحدية حملت إلى بلاط جيوم الطيّب وبعد أن لقيت ما يليق بها من العناية أعيدت إلى قصر والدها، وحسب المصادر المذكورة فإن الخليفة الموحدي الذي تأثر لهذه المعاملة أرسل في الحين رسولا إلى صقلية لشكر ملكها وعقد الهدنة بين البلدين، وعندما نرجع إلى المصادر العربية نجد أنها تذكر في أحداث 575 هـ جنوح ملك صقلية إلى السلم وطلب الهدنة وتنص على توجيه الرسل والهدايا إلى الخليفة يوسف الذي كان موجودا حينئذ في تونس كما أننا نستفيد من مصادرنا العربية أن الأميرة المذكورة هي زينب بنت الخليفة يوسف وزوجها هو ابن عمها أبو زيد بن أبي حفص الذي كان واليا على إفريقية⁽⁴¹⁾، وأما السفير المغربي الذي لم يذكر اسمه كذلك فهو فيما نقدر — ابن عبد ربه الحفيد الذي كانت له حظوة في البلاط الموحدي وقتئذ كما أنه كان موجودا في المنطقة بحكم كتابته عن السيد أبي الربيع والي بجاية، والمفروض أن الجميع كان في ركب الخليفة بتونس يومئذ، ويدفعنا إلى هذا الفرض والتقدير أن الرجل وجد في صقلية وترك لنا وصفاً لها سبق ذكره.

رأينا فيما سبق أن بعض المترجمين لابن عبد ربه الحفيد قالوا إنه حذر في رحلته المدونة من الأسفار لما قاسى فيها، ونحن نعرف أنه بحكم وظائفه قد تنقل كثيرا في الأندلس والمغرب وإفريقية بالإضافة إلى رحلته إلى مصر وصقلية. ولاشك أنه رافق حركات خلفاء المهدي إلى كل من الأندلس وإفريقية وصحب السادة الموحدين الذين اشتغل كاتبنا عندهم. وذكرت المصادر منهم أبا الربيع سليمان الذي كان واليا على بجاية والمغرب الأوسط مدة وعلى سجلماسة وتحوم الصحراء مدة أخرى⁽⁴²⁾، وذكرت منهم

أيضا أبا محمد عبد العزيز الذي كان واليا على مالقة وأعمالها من سنة 598 هـ إلى سنة 603 هـ⁽⁴³⁾، وقد ولي ابن عبد ربه كذلك خطة الإشراف في غرناطة وغيرها، وبالجملة فقد «تلبس بالأعمال السلطانية دهرًا.. إلى أن أقعد من شكايته بقدمه منعه من القيام والتصرف فعكف على النظر والمطالعة فانتفع بذلك»⁽⁴⁴⁾ كما يقول ابن عبد الملك، وتستوقفنا في هذا الكلام عبارة «فعكف على النظر» وذلك من حيث علاقتها بعبارة: «قال الناظر» المستعملة كثيرا في كتاب الاستبصار، والناظر يمكن أن تعني الناظر بتكليف في كتاب ما، ويمكن أن تعني ناظر الأشغال وقد وجدنا الاستعمال الأول في قول أمير من أهل هذا العصر كلّف كاتبه بالنظر في كتاب وابدأ رأيه فيه قائلا من أبيات

وَلَمْ أَفْرُغْ لِأَنْظُرْهُ وَمِثْلُكَ مَنْ كَفَى النَّظَرَ⁽⁴⁵⁾

أما الناظر بمعنى ناظر الأشغال فقد كانت خطة معروفة يومئذ، وسواء أكان المقصود بها المعنى الأول أم المعنى الثاني فإن المعنيين معاً ينطبقان على ابن عبد ربه الحفيد.

ذكرنا أن ابن عبد ربه هذا تنقل كثيرا في الأندلس والمغرب الأوسط وغيرها ونقتصر هنا على مثالين في هذا الصدد، فقد شهد وقعة الأرك المشهورة عام 591 هـ ويروي عبد الواحد المراكشي أن الخليفة أقام بعد هذه المعركة في اشبيلية، وأمر بعرض الجيش في السلاح التام، فلما أعجبه ما رأى من حسن هيأتهم صلى ركعتين شكرا لله عز وجل، واتفق أن نزل الغيث مدرارا فقال ابن عبد ربه قطعة منها:

يَأْتِي شِعْرِي مَا شَيْءٌ دَعَوْتُ بِهِ قَبْلَ السَّلَامِ وَمِنْ بَعْدِ التَّحِيَّاتِ
شَيْءٌ تَأَثَّرَ مِنْهُ الْجَوُّ فَاتَّصَلَتْ مِنَ السَّحَابِ زَايَاتُ بَرَايَاتِ
مِنْ كُلِّ وَطْءٍ لَفَاءُ الرِّبَابِ هَمَّتْ مَاءٌ نَقِيًّا عَلَى زُغْفِ نَقِيَّاتِ
قُلْ كَيْفَ لَا يَفْتَحُ اللَّهُ الْبِلَادَ وَقَدْ تَفْتَحَتْ لَكَ أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ⁽⁴⁶⁾

ولما قتل السيد أبو عمران بن يوسف بن عبد المؤمن إثر ولايته تلمسان وحررته المُتسرَّعة لمحاربة ابن غانية عام 605 هـ رثاء ابن عبد ربه بأبيات يقول فيها:

وَلَمَّا دَهَتْ حَيْلُ الشَّقِيِّ فُجَاءَةً وَسَالَ الْعَدَى بَحْرًا مِنَ الْمَوْتِ مُزِيدًا
شَهِدَتْ بِوَجْهِهِ كَالْغَزَالَةِ مُشْرِقًا وَإِنْ كَانَ وَجْهُ الشَّمْسِ بِالتَّقَعْرِ مُزِيدًا
غَزَائِمَ صِدْقٍ لَيْسَ تُعْرَفُ هَكَذَا إِلَى الْمَوْتِ تُسْعَى أَوْ عَلَى الْمَوْتِ يُعْتَدَى⁽⁴⁷⁾

وقد تدل هذه الأبيات على أن الكاتب الشاعر شهد هذه الواقعة، ووصفه يتفق تماما مع ما جاء في البيان المغرب وهو: «وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا قَبْلَ أَنْ يَلْتِمَ جَمْعُهُ وَيُكْمَلَ نَعِيَّتُهُ، وَيَأْخُذَ أَهْبَتَهُ.. إِذْ غَشِيَتْهُ أَسْرَابُ الْعَدُوِّ كَالْجَرَادِ الْمُنتَشِرِ، وَطَلَعَتْ عَلَيْهِ سَاقَاتُ ابْنِ غَانِيَةٍ وَكَانَ لَهُ كَالْمُنْتَظَرِ، فَثَبَّتَ السَّيِّدُ مَعَ مَنْ كَانَ فِي مَوْكِهِ مِنْ خَاصَّتِهِ..»⁽⁴⁸⁾ وكلمة «الشقي» التي استعملها ابن عبد ربه في وصف ابن غانية تكرر استعمالها في وصفه أيضا في الاستبصار⁽⁴⁹⁾.

ورثاء ابن عبد ربه للأمير المذكور في التاريخ المشار إليه ذكره المقرئ في نفح الطيب، وهو يتعارض مع ما ذكر ابن عبد الملك من أن ابن عبد ربه «توفي لتسع خلون من محرم من عام اثنين وستائة وهو ابن سبعين سنة أو نحوها»⁽⁵⁰⁾، وتجدر الإشارة إلى أن المصادر الأخرى لم تتعرض إلى ميلاده أو وفاته أو سنه. وقد كان ابن عبد الملك هو الوحيد أيضا الذي ذكر بعض مؤلفاته ولكنه لم يستقصها كما هي عاداته، كما أنه لم يشر إلى معلومات أخرى تتعلق به وردت عند غيره، وبخصوص مؤلفات ابن عبد ربه الحفيد يقول صاحب «الذيل والتكملة»: «وله اختصار حسن في أغاني الأصفهاني، وردّ جيد على ابن غرسية في رسالته الشعوية لم يُقصر فيه عن إجادة»⁽⁵¹⁾.

أما اختصار الأغاني فيبدو أنه هو الذي ينسب إلى مخدوم ابن عبد ربه أبي الربيع كما تُنسب إليه كثير من شعر ابن عبد ربه. وهذه المسألة الانتحالية الأخيرة معروفة نبه عليها عبد الواحد المراكشي وغيره قديما وكتب فيها الأساتذة عبد الله كنون وعباس الجارري ومحمد بن تاويت التطواني⁽⁵²⁾.

وأما ردّه على ابن غرسية فهو واحد من أكثر من عشرة ردود معروفة، وكلّها لكتاب أندلسيين من عصر الموحدين⁽⁵³⁾، ويبدو أن هذه الردود التي تسفه الشعوية كانت بإيعاز من بني عبد المومن⁽⁵⁴⁾.

ومما يلاحظ هنا أن ابن عبد الملك لم يتعرض بشيء إلى رحلة ابن عبد ربه التي سميت رسالة تارة ومقامة تارة وكتابا تارة أخرى، كما أنه لم يذكر كتاب الاستبصار على فرض أنه لابن عبد ربه، وهو الفرض الذي تشهد له قرائن متعددة أشرنا إلى بعضها فيما سبق، ومن بينها أيضا أن ابن عبد ربه كان له «تحقق بشيء من أجزاء الفلسفة من علوم التعاليم وعلم المنطق»⁽⁵⁵⁾ وهذا ينطبق على جامع «الاستبصار» الذي يبدو في هذا الكتاب هرمسيا ملما بالكيمياء القديمة والهندسة والفلك، عارفا بكتب أرسطو،

فهو يقول مثلاً : «وهذا القلمُ (يعني القلم الهيروغليفي) هو المُسَطَّرُ في كتاب السياسة لأرسطو، وهو كتاب مشهور»⁽⁵⁶⁾. بل انه كان صديقاً لابن رشد قطب المشتغلين بالفلسفة في وقته، ويوجد في نسخة مخطوطة من «الاستبصار» نص طويل يتعلق بالرصد وحركة قلب الأسد وكيفية حركة الأفلاك والكواكب الثانية، وقد ورد خلال هذا النص ما يلي : «وأخبرني ابن رشد سنة أربع وثمانين وخمسمائة أنه بقي من هذه الحركة وترجع نحو الستين سنة...»⁽⁵⁷⁾. ومن المعروف أن ابن رشد الذي رجع إليه صاحبنا جامع «الاستبصار» كان يهتم بعلم الفلك ويشغل بالرصد وله مقالات وتلاخيص في «الآثار العلوية وحركة الجرم السماوي». ومما جاء في كتابه «تلخيص السماء والعالم» قوله :

«وسُهَيْلٌ لا يظهر في بلادنا هذه التي هي جزيرة الأندلس إلا ما يُحكى أنه يظهر في الجبل المعروف فيها بجبل سُهَيْل وهو يظهر في بلاد البربر خلف البحر الذي بيننا وبينهم المسمى بالزقاق، وقد عاينْتُ أنا بمرآكش في عام ثمانية وأربعين وخمسمائة كوكباً لا يظهر من هذه البلاد وذلك على الجبل المعروف بِجَبَلِ دَرَنْ فزعموا أنه سُهَيْل»⁽⁵⁸⁾.

ومن القرائن التي يمكن أن نعتدّ بها في العلاقة بين كتاب الاستبصار وابن عبد ربه هذا النص الوارد في ديوان الأمير أبي الربيع وهو : «ومن نظمهم ادام الله علاهم إجازة هذا البيت لأحد كتابهم :

أَلْفَتْ بِتِلْيَتِ السُّهَادِ وَعَلِمْتُ بَرَاغِيْهَا جَنَّبِي حُسْنَ التَّقَلُّبِ»⁽⁵⁹⁾

وكتب أبي الربيع قائل هذا ينبغي أن يكون ابن عبد ربه، أمّا «تيليت» فلم يتحدث عنها أحد قبل جامع الاستبصار الذي يقول فيها : «مدينة تيليت هي متوسطة بين القبائل القَبَلِيَّة (أي الجنوبية)، وعليها تمر القوافل، وفيها حصنٌ منيع رُتِبَ فيه الجند، وعمره الوالي، وحوله الأغصان الكثيرة والثمار والمياه المطردة والعمائر»⁽⁶⁰⁾.

فصاحب هذا الوصف هو نفسه في نظرنا قائل البيت المذكور الذي عاش مع أميره في إقليم سجلماسة حيث تقع البلدة المذكورة.

وقد حاولت أن أستشف ما يمكن أن يشهد لأطروحتي أيضاً من أسلوب الكتابة في ديباجة الاستبصار وخاتمته وفي ديباجة اختصار الأغاني، فوجدت أولاً أن ديباجة هذا الأخير تبدأ كما يلي : «الحمدُ لله خالق اللوح والقلم، ومفضل العرب على العجم...»⁽⁶¹⁾. وهذه الفقرة تُشَيِّ في نظري بأن هذا الاختصار المنسوب إلى أبي الربيع

ليس من وضعه، وإنّما هو من وضع ابن عبد ربّه الذي له رسالة في تفضيل العرب على العجم، وقد ردّ بها على ابن غرسية كما تقدم، وهذا يؤيد ما ذهب إليه ابن عبد الملك من نسبه هذا الكتاب إلى كاتب الأمير المذكور.

ثمّ وجدتُ ثانياً أنّ صيغ الدعاء والاعتذار في الموضوعين المذكورين متقاربة ومتشابهة، ونستطيع أن نلاحظ التشابه في قوله معتذراً عمّا قد يكون من تقصير في مقدّمة الاستبصار: «وَلِلْمَوْلَى أَدَامَ اللَّهُ تَأْيِيدَهُ، وَوَصَلَ سَعُودَهُ، أَنْ يَقْدَّرَ عَبْدُهُ فِيمَا أَوْرَدَهُ، وَيَحَقِّقَ فِيمَا رَجَاهُ أَمَلَهُ وَمَعْتَمَدَهُ، فَانْهَ — وَإِنْ كَانَ قَدْ أَنْفَذَ وَسَعَهُ فِي الْإِخْتِيَارِ، وَتَوَسَّطَ بَيْنَ الْإِقْلَالِ وَالْإِكْثَارِ — حَرِيٌّ بِالْإِحْسَانِ ظَنًّا، وَيَرَى التَّغْمِصَ عَنْ هَنَاتِهِ سَنًا»⁽⁶²⁾.

وقوله في مثل ذلك في ديباجة «اختصار الأغاني»: «فَلْيُعْضِرْ نَازِلٌ مَخْتَصِرُنَا عَلَى زَلَلِهِ، وَلِيَصْفَحْ عَنْ خَطَايَاهُ وَخَطَلِهِ، وَلِيُحْسِنَ بِهِ ظَنَّهُ، وَلِيَرَعَ إِلَى مَا قَدَمْنَاهُ مِنْ بَسْطِ الْعُذْرِ فِي التَّقْصِيرِ أَذْنَهُ»⁽⁶³⁾.

وقد يقال إذا كان كتاب «الاستبصار» لابن عبد ربه المذكور فما باله لم يورد فيه مثلاً شعره في وصف منار الاسكندرية ولقاءه لابن سناء الملك في القاهرة وما أشبه هذا.

وقد نجيب على ذلك بأن الكتاب يقوم على الاختصار وأنه كتاب جغرافية وتاريخ وليس كتاب أدب ثمّ إنه وضع على شرط المؤلّف له فلا مجال فيه للحديث عن النفس ممّا قد يُعَدُّ خروجاً عن الأدب والموضوع.

وأخيراً فإنّ نقول التمجروتي عن ابن عبد ربّه تظلّ أقوى القرائن التي لدينا في نسبة كتاب «الاستبصار» لحفيد صاحب العقد.

إن كتاب «الاستبصار» هو كما سبق أن ذكرنا عبارة عن اقتضاب من «المسالك والممالك» للبكري من جهة وإتمام لبعض موادّه من جهة أخرى، وكأني بسادة الموحدين وشيوخهم الذين كانوا يهتمون بأحوال البلدان في وقتهم دعوا بعض كتّابهم إلى تكملة هذا الكتاب وذلك بإضافة المعطيات الجغرافية والتاريخية التي ظهرت بعد البكري، وقد قام بهذا العمل اثنان من كتّاب الموحدين فيما نعرف هما: جامع «الاستبصار» الذي تقدّر أنه ابن عبد ربه.

أما الكاتب الثاني فهو أبو الحكم عبيد الله ابن غلنّده السرقسطي الذي توفي بمدينة مراكش سنة 581 هـ «وكان يشارك في فنون من الأدب والطب» كما وصفه

ابن الأبار في تحفة القادم، وقال في التكملة : «وكتب علما كثيرا وكل ما وجد من تقييداته ففي غاية الافادة»⁽⁶⁴⁾ ولم يسم ابن الأبار شيئا من تقييدات هذا الطبيب الأديب الذي كان من أطباء يعقوب المنصور المقربين⁽⁶⁵⁾، وقد وقفنا في كتاب صلة السمط وسمه المرط لابن الشباط على ما يلي : «اعلم أنّ ما أورده من الأوصاف عن البكري رحمه الله فهو من كتابه المعروف بـ«المسالك والممالك» من نسخة متممة بتميم الكاتب الأجل أبي الحكم ابن غلندة رحمه الله، وأعارض ذلك بنسخة غير متممة الا أنني أختصر من ذلك ما أرى اختصاره»⁽⁶⁶⁾. وقد نقل ابن الشباط عن أبي الحكم وصفا لصقلية وهو في رأينا أنموذج لتصرف ابن غلندة في «المسالك والممالك»، ونفهم من كلام ابن الشباط ونقوله أن تصرف ابن غلندة في كتاب البكري كان تصرفا شاملا وأنه تتبع بالتميم جميع أجزاء الكتاب، أما تصرف صاحب الاستبصار الذي هو ابن عبد ربه فيما نقدر فهو تصرف جزئي لأنه اقتصر على ما يتعلق بوصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب ولعله اقتصر على هذا تلبية لاقتراح من كلفه أو تكون النسخة التي كلف بتجريدها غير تامة، وهو يصرح بهذا في آخر النسخة المطبوعة هكذا : «قال الناظر : هنا انتهى ما وجدته من هذا الموضوع ولقد أحسن واضعه.. وهذا لعمرى أقرب وأخصر من غيره، ففيه ما في غيره، وليس في غيره ما فيه، وحقت وطرزت كتاب الواضع، بما قيدت في هذه المواضع»⁽⁶⁷⁾.

ومن هذا النص نفهم أن الأمر يتعلق باختصار قصد فيه إلى التقريب والتبسيط. وقد وجدنا كتبة آخرين يقومون باختصارات لكتب مشهورة في هذه الفترة، فقد اختصر ابن المرخي ليوسف بن عبد المومن كتاب «الغريب المصنف» واختصر له أيضا كتاب «التيمة»، واختصر الكاتب ابن عياش كتاب «اصلاح المنطق»⁽⁶⁸⁾، واختصر صاحبنا ابن عبد ربه وعلي بن نجبة وعلي بن سعد الخير كتاب «الأغاني»، وفي هذا السياق يندرج اختصار «المسالك والممالك» من قبل الكاتبين المذكورين.

وتجدر الإشارة إلى أن النسخة المراكشية المخطوطة تختلف في كثير من المواضع عن الطبعة المحققة التي أخرجها الدكتور سعد زغلول عبد الحميد والتي اعتمد فيها على ثلاث مخطوطات، وتتميز هذه النسخة المراكشية بزيادات مهمة وهي تخلو من بداية الديباجة الواردة في المطبوع التي تتضمن اهداء الكتاب والتي ورد فيها الدعاء ليوسف بن عبد المومن، وجاء في آخرها ما يلي «وأنا مؤمل أن أتفرغ لوضع كتاب كامل يحتوي على ذكر بلاد المغرب وممالكها إلى هذه الأيام السعيدة الإمامية، وأضيف إليها ما رفعته للحضرة العالية من مفاخر هذا الأمر العالي أبد الله دوامه سنة 580 هـ

وهو ما يزيد عندي من فتوحاته المستأصلة لشأفة الأعداء إلى حيث يبلغ بي الزمان، فهو عملي وسعيي، ونصبي من الجهاد ورأبي»⁽⁶⁹⁾.

والسنة المذكورة هي التي توفي فيها يوسف بن عبد المومن وبويع فيها ولده يعقوب، ولذلك لا نعرف من هو المرفوع اليه ولا نعرف كذلك ما هو هذا المرفوع، والواقع أن هذه الفقرة التي تنفرد بها مخطوطة باريز تكاد تشوش على مجرى افتراضنا الذي بدا قائما حتى الآن، وذلك أنها قد تفتح المجال أمام افتراض آخر، وربما يفهم من لهجتها أننا أمام كاتب من كتاب الخليفين يوسف ويعقوب كابن محشرة الذي سبق ذكره أو مؤرخ من مؤرخيهما كيوسف بن عمر، غير أن هذا الافتراض مستبعد تدفعه القرائن السابقة ويرده ابتعاد أسلوب الاستبصار عن أسلوب السجع الذي يلتزم به الكاتبان المذكوران، ويضاف إلى هذا أن النسخ الأخرى الموجودة من الاستبصار لا تشمل على هذه الفقرة بل إن خاتمة المخطوطة المراكشية جاءت بصيغة مغايرة نوردها فيما يلي :

«وفي البلاد عجائب وغرائب لا يُمكن حصرها، ولا يقف أحدٌ بين المؤرخين عند انتهاء حدها، لكننا أوردنا في مُختصرنا هذا كل ما رأينا وما تحصّل لدينا من الثقة الرواة ليكون للمسافرين دليلا، وللناظرين في هذا العلم منهاجا واضحا وسبيلا، والله تعالى يَنفَعُنَا بهذا القصد، ويُلْهِمُنَا بتوفيقه إلى الرشد، وَيَقِينَا الخطأ، وَيَعْصِمُنَا من الزَّلَل، بِمَنَّةِ وَفَضْلِهِ، لَارَبِّ غَيْرِهِ وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَم، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»⁽⁷⁰⁾.

وتدل هذه الفروق بين النسخ في المقدمة والخاتمة والزيادة والنقصان على أن جامع «الاستبصار» أخرج منه نسخا متعددة، وكان يتصرف في كل نسخة حسب الظروف، ففي هذه النسخة المراكشية ورد ذكر حطيم علي بن يوسف بن تاشفين في المسجد الحرام إلى جانب حطيم صاحب بغداد وحطيم شاه ملك العجم وغيرهما، والحطيم هنا عبارة عن رجل من خشب مصفحة بالنحاس تعلق عليها القناديل وتعلق منها باكواس من زجاج في رمضان «وكان حطيم علي بن يوسف ينظر إلى الركن الغربي..»⁽⁷¹⁾.

وهذه الإشارة تقفنا على اقدم مساهمة ملكية مغربية فيما نعلم بالحرم المكي، ولعلها حذفت من النسخ الأخرى مراعاة للموحدين، وفي هذه النسخة ورد كذلك

تسمية المسدد لنفقات سقاية جامع الأندلس وهو الشيخ أبو عمران موسى بن سدّات المكلاتي⁽⁷²⁾ ولا ذكر له في النسخ الأخرى. وثمة زيادات متعددة في مادتي مراکش وفاس وغيرهما وسوف أثبت نماذج منها في آخر هذا البحث.

لقد أعادت دار النشر المغربية طبع هذا الكتاب بالتصوير أخيرا، وكان ينبغي أن لا يعاد طبعه إلا في ضوء النسخة المراكشية نظرا لما فيها من زيادات وفروق مفيدة.

الحواشي

- (1) نشر هذا التلخيص أو المختصر بعناية الأستاذ سعيد أعراب. انظر كتابه : «مع القاضي أبي بكر ابن العربي» : 183-227. نشر دار الغرب الاسلامي، 1987. كما نشر ضمن قانون التأويل بتحقيق الأستاذ محمد السليماني.
- (2) «العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين» للأستاذ المنوني، ص 73 وما بعدها.
- (3) «الذيل والتكملة» 8 : 383.
- (4) اسم وقتين قد تكون له علاقة باسم واكتن، ومن أصحاب المهدي الذين ذكرهم البيهقي «الشيخ أبو محمد واكتن الهرغي» وقد يكون مصحفا عن وقتين، ومن ينسبون إليه «الشيخ أبو بكر ابن وقتين» والشيخ سليمان بن الحاج عبد الله ابن وقتين أبو الربيع» والأول مذكور في أخبار البيهقي : 60، 83 ومن المعروف أن كنية أبي بكر هي أبو يحيى أما الاسم الثاني فهو مترجم عند ابن الأبار في «الحلة السيرة» 2 : 295 وكان واليا على قابس وغيرها وعاملا على افريقية ونائبا على تونس.
- (5) نذكر منها على سبيل المثال أخبار عبد الرحمن الناصر لمؤلف مجهول التي نشرها الأستاذ غرسية غومس، وذكر بلاد الأندلس لمؤلف مجهول التي نشرها الأستاذ لويس مولينا ومفاخر البربر لمؤلف مجهول وقد نشرها ل. بروفنسال، وأخبار مجموعة في فتح الأندلس المنشورة في مدريد وغيرها.
- (6) «الأنيس المطرب»، 45.
- (7) «جذوة المقتبس» 1 : 47، 80، 82.
- (8) «جني زهرة الآس» : 24، 38.
- (8م) مجلة الثقافة المغربية يراير، مارس 1942.
- (9) «العلوم والآداب»، ص 88.
- (10) «الاستبصار» : 210.
- (11) نفسه : 212.
- (12) «الروض المhton» : 5 المطبعة الملكية، 1964.
- (13) «الاستبصار» : 218.
- (14) نفسه : 165.
- (15) نفسه : 49، 41، 86، 87.
- (16) مقدمته للاستبصار : ث.

(16م) يقول ن. لقتريون في نهاية بحث له عن كتاب «الاستبصار» مايلي : «إن دراستنا أدت بنا إلى اكتشاف ثلاث شرائع في الكتاب هي :

- أ - نص البكري فهو أساس الكتاب بالنسبة للمغرب والسودان الغربي.
 ب - كتب النص الأصلي لكتاب «الاستبصار» في حدود عام 1135 م وقد أضاف المؤلف إلى نص البكري - اعتياداً على أسفاره وعلى ما استقاه من المسافرين - معلومات عن آثار الهجرة الهلالية في إفريقيا والمغرب الأوسط ومعلومات عن فترة المرابطين في المغرب والسودان الغربي.
 ج - مراجعات وإضافات قام بها «الناظر» الذي أتم الكتاب في شكله الأخير عام 1191/587 م وكان همه أن يضيف على الكتاب طابعاً موحداً.
 لذلك فإن على الباحث والمؤرخ عند استعمال الكتاب أن يكون حذراً وأن يحدد الشريحة التي يستعملها».

(17) «النفحة المسكية» : 12، 13، 14، 16، 24، 27، 32، 59، 63.

(18) ذهب بعض الدارسين المحدثين اعتياداً منهم على فقرات مدسوسة في العقد إلى أنه زار المشرق وحج، ومن هؤلاء أحمد أمين وأحمد هيكل ومحمد شفيق. راجع كتاب ابن عبد ربه وعقده لجبرائيل جبور ص 142 وما بعدها و«ظهر الاسلام» 3 : 85 و«الأدب الأندلسي» لأحمد هيكل، ص 223 وما بعدها من الطبعة الثامنة.

(19) راجع كتاب ابن عبد ربه وعقده ص 132، (الطبعة الثانية).

(20) «النفحة المسكية» : 24.

(21) «الاستبصار» : 127.

(22) «الأنيس المطرب» : 45 ط. دار المنصور. و«جنى زهرة الآس» : 23-24.

(23) «المعجب» : 297-300، ط 1949.

(24) ص 94 تحقيق الأبياري.

(25) ج 3 ص 204.

(26) ج 1 ص 427، تحقيق شوقي ضيف (الطبعة الأولى).

(27) يوجد الوصف المذكور في الجزء الرابع (مخطوط دار الكتب رقم 2712) وقد نشره موريتز في العيد الثوي لميلاد ميشيل أماري، المجلد 1 : 293-300.

(28) ج 6، ص 487. وفي ص 378 نجد الترجمة التالية : «محمد بن عبد ربه بن محمد بن البقاء بن عبد ربه القيسي : اشبيلي، كان حيا سنة 550 هـ» والظاهر أن هذا شخص آخر.

(29) ج 3، ص 228.

(30) ج 2، ص 97، 98، 119، 119. تحقيق احسان عباس.

(31) مرة في ترجمة الرصافي البلسي ومرة أخرى في ترجمة الأمير أبي محمد عبد العزيز بن يوسف بن عبد المومن.

(32) المغرب 1 : 427 ويبدو أن في العبارة قلقل أو خلا وقد يكون أصلها هكذا : «وله رسالة [كتبها] في صقلية» أو هكذا «وله رسالة في تنقله».

(33) العيد الثوي لميشيل أماري 1 : 293.

- (34) «نفح الطيب» 2 : 97.
- (35) نفسه
- (36) راجع «رحلة ابن جبير» و«الذيل والتكملة» 5 : 689 - 690.
- (37) «الاستبصار» : 104، وفي النسخة الخطية بعد قوله «بأهوال تصيبه عليها» مايلي : «وذلك أنه لما نزلها عشية العاشر من محرم عام سبعين إلخ».
- (37م) من هؤلاء المؤرخين ابن الأثير في «الكامل»، 11 : 570، وأبو شامة في «الروضتين»، 1 : 234، والحموي في «التاريخ المنصورى» والقاضي الفاضل الذي خصها برسالة أسماها الامام والاعلام، فيما جرت به الأحكام، من الأمور المقضية، في معركة الأسكندرية وهي منشورة في المكتبة الصقلية (الملحق الثاني من ص 19 إلى ص 25).
- (38) «الذيل والتكملة» 6 : 487، وانظر ترجمة أبي عبد الله محمد ابن منصور في «سير النبلاء» ج 21 ص 216، 217 والمصادر التي ذكرت في الحاشية.
- (38م) أنظر تراجم المذكورين في «سير أعلام النبلاء» 21 : 122 و«شذرات الذهب» 4 : 276، و«واسطة العقدين» ج 1 ص 327.
- (39) «الذيل والتكملة» 6 : 352، 356، 357 والمعجم لابن الأبار : 322.
- (39م) «المعجب» : 299. وفي «نفح الطيب» 2 : 98 : «واجتمع ابن عبد ربه المذكور في رحلته بالسعيد ابن سناء الملك، وأخذ عنه شيئا من شعره ورواه بالمغرب».
- (40) أنظر «الاستبصار» : 107. و«البيان المغرب» (الموحدي) : 209. و«نفح الطيب» 1 : 444 - 445 وج 3 : 99 - 110، والمصادر التي أشار إليها المحقق الدكتور احسان عباس.
- (40م) لعل مما يقوى هذا ما وجدناه في تاليف له مخطوط تحدث فيه عن الفازات أي الفساطيط ووصفها بأنها «مصورة كلها موشاة بالألوان والصور المطبوعة على احتفالهم في فازات الملوك عندهم أبصرت ذلك في تلك الديار» كما تحدث عن بعض العادات الخاصة قائلا : «أبصرت الظرفاء بديار مصر يفعلون ذلك بحبي بعضهم بعضا ببواكير الأزهار في زمن الربيع» وقد تحدث ابن عبد ربه الحفيد في هذا التاليف المخطوط عن أهرامات الجيزة ودواميس الأسكندرية ووصف ما بداخلها وصور الهرمين تصويراً تقريبياً وسن فصل هذا في العدد القادم إن شاء الله. وراجع وصف كسر الخليج، وخميس العدى في الاستبصار : 49، 98.
- (41) العيد المئوي لميلاد ميشيل أمارى 1 : 293 - 300.
- (41م) وضع الشاعر الشريف مولاي علي الصقلّي حول هذه الحادثة رواية شعرية عنوانها : الأميرة زينب. (1989).
- (42) راجع في أبي الربيع رسالة الزميل الدكتور عباس الجراري.
- (43) «المعجب» : 245، 329، 334 و«أعلام مالقة» : 133 (مخطوط) و«الذيل والتكملة» 8 : 236.
- (44) «الذيل والتكملة» 6 : 487.
- (45) «الذيل والتكملة» 8 : 280.
- (46) «المعجب» 297.
- (47) «نفح الطيب» 2 : 98.

- (48) البيان (الموحدي) : 252.
- (49) «الاستبصار» : 111، 112، 150، 155، 159.
- (50) «الذيل والتكملة» 6 : 487.
- (51) نفسه.
- (52) وردت الجملة في المطبوع كما يلي : «وهذا القلم هو المسطر في كتاب السياسة الأوسط، وهو كتاب مشهور» وقد رجعنا إلى كتاب السياسة فلم نجد فيه شيئا مما تشير إليه هذه الجملة.
- (53) نشر بعضها بتحقيق عبد السلام هارون وتوجد الإشارة إلى بعضها في «تحفة القادِم» : 38 و«الذيل والتكملة» 1 : 249، 5 : 154 وبرنامج الرعيي : 194. وقد وقفت على بيت لابن عبد ربه الحفيد في تفضيل العمائم على التيجان يقول فيه :
- لَأَثْوَا الْعَمَائِمَ مُرَخَّاةَ ذَوَائِبُهَا يَأْذِلَّةَ الْقَاجِ لِلْمُرْعَى مِنْ أَلْعَذِبِ
- ويبدو أنه مما ورد في رسالته المذكورة.
- (54) يحملنا على هذا القول أن معظمها ظهر في عصر الموحدين وأن جلها لكتاب شغلوا وظائف في هذا العصر، ولعل لها ارتباطا بانتساب عبد المؤمن وبنيه إلى القيسية وجلبهم الأعراب واستعانتهم بهم في الأندلس.
- (55) «المعجب» : 297-298.
- (56) هكذا ورد النص في مخطوط «الاستبصار»، وهو في المطبوع كما يلي : «وهذا القلم هو المسطر في كتاب السياسة الأوسط وهو مشهور» ومن الواضح أن الأوسط تحريف لأرسطو.
- (57) الاستبصار : 27 مخطوط، وفي النص الملحق بهذا البحث إشارة إلى ما زعمه المنجمون سنة 582 هـ من خراب العالم بسبب اجتماع الكواكب الستة في الميزان؛ وكتبوا بذلك إلى جميع البلدان من الهند إلى الأندلس واستعد الناس لذلك بخفر المغارات. أنظر الروضتين لأبي شامة 2 : 72، و«شذرات الذهب» 4 : 273 و«ألف باء» 2 : 205، 206 و«الذيل والتكملة» 4 : 210 وما بعدها.
- (58) تلخيص «السماء والعالم» : 275 تقديم وتحقيق جمال الدين العلوي.
- (59) «ديوان أبي الربيع» : 88. ونشير كذلك إلى جبل زكّار قرب مدينة مليانة الذي دفن فيه والد الأمير أبي الربيع وأخوه، وورد ذكره في شعر منسوب لأبي الربيع (ديوانه :) فهذا الجبل لم يرد ذكره ولا وصفه إلا في «الاستبصار» الأمر الذي يجعلنا نربط بين هذا وبين ابن عبد ربه الحفيد كاتب أبي الربيع.
- (60) «الاستبصار» : 200 و«الروض المعطار» : 145 نقلا عنه دون أن يسميه.
- (61) «اختصار الأغاني» مخطوط الخزانة العامة.
- (62) «الاستبصار» : 3-4.
- (63) «اختصار الأغاني». مخطوط خ : ع. ر.
- (64) التكملة 2 : 938 و«تحفة القادِم» : 71 و«طبقات الأطباء» 3 : 128-129 و«نفع الطيب» 3 : 597.
- (65) «طبقات الأطباء» 3 : 128-129.
- (66) المكتبة الصقلية لميشيل أماري : 109-213 و«تاريخ الأندلس» لابن الكرد بولس ووصفه لابن الشباط تحقيق أحمد مختار العبادي، ص 183. ومن الغريب أن الذين اهتموا بنسخ «المسالك والممالك» لم ينتبهوا

إلى هذه النقطة، إذ قد تكون بعض النسخ الموجودة من هذا الكتاب تنتمي إلى نسخة ابن غلنده المتممة، وهذا ما يفسر سر الاختلاف في النقول الموجودة.

(67) «الاستبصار» : 226.

(68) «الذيل والتكملة» 6 : 385، 387، 488.

(69) «الاستبصار» : 226.

(70) «خاتمة الاستبصار» المخطوط.

(71) المصدر نفسه : 12.

(72) نفسه : 116. وقد ورد ذكر موسى بن سادات أيضا في المستفاد (مخطوط) على أنه الذي ساق الماء إلى جامع القرويين.

ملاحق الدراسة

1 - صاحب الاستبصار يناقش ابن رشد الحفيد في مسألة فلكية

«وَزَعَمَ آخَرُونَ أَنَّ قَلْبَ الْأَسَدِ إِذَا بَلَغَ آخِرَ الدَّرَجَةِ السَّادِسَةِ عَشْرَةَ مِنَ الْأَسَدِ كَانَ طُوفَانٌ جَارِفٌ يَجْرِفُ الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ وَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ حَيَوَانٌ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ الْبَارِيءُ سُبْحَانَهُ مَا شَاءَ مِنَ الْخَلْقِ.

قَالَ الْبُكْرِيُّ فِي كِتَابِ الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ : إِنَّ ذَلِكَ لَا يَصِحُّ لِأَنَّ قَلْبَ الْأَسَدِ كَانَ يُرْصَدُ سَنَةً أَرْبَعَ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ فِي ثَلَاثَ عَشْرَةَ دَرَجَةً وَثَلَاثِينَ دَقِيقَةً مِنَ الْأَسَدِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْيَوْمَ وَهِيَ سَنَةٌ إِحْدَى وَسِتِّينَ وَأَرْبَعَمِائَةٍ فِي آخِرِ الدَّرَجَةِ السَّادِسَةِ عَشْرَةَ مِنْهُ⁽¹⁾.

قَالَ النَّاطِرُ : قَلْبُ الْأَسَدِ يَتَحَرَّكُ مِنْ مَوْضِعِهِ الدَّائِي الَّذِي هُوَ تِسْعُ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَثَمَانِي دَقَائِقَ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى تِسْعَ عَشْرَةَ دَرَجَةً مِنْهُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى تِسْعَ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً وَتِسْعَ دَقَائِقَ مِنَ السَّرَطَانِ، فَجُمِلَتْهَا كُلُّهَا تِسْعَ عَشْرَةَ دَرَجَةً وَثَمَانٍ وَخَمْسُونَ دَقِيقَةً، وَكَحَرَكَةِ قَلْبِ الْأَسَدِ تَتَحَرَّكُ الْكَوَاكِبُ وَتَتَرْتَّبُ عَلَى مُرُورِهَا وَعَلَى مَوَاضِعِهَا الدَّائِيَّةِ.

وَأَعْلَمَنِي أَبُو رُشْدٍ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ أَنَّهُ بَقِيَ مِنْ هَذِهِ الْحَرَكَةِ وَتَرَجُّعِ نَحْوِ السِّتِّينَ سَنَةً، وَهَذِهِ حَرَكَةُ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ، وَرَأَيْتُ فِيهَا أَنَّ فِي بَطْنِ الْفَلَكَ الثَّامِنِ مَلَكًا يُحَرِّكُهَا مِنْ دَاخِلِهِ.

(1) هذا الكلام موجود في البكري (قسم مصر : 25) مخطوط خ.ع.ر. 488 ق وبعد هذه الفقرة مايلي : «وفي كتب السند هند وهو الذي عمل منه المجسطي وغيره...»

وَالْقَوْلُ أَنَّهُ يَجِبُ تَعْدِيلُهُ وَرَصْدُهُ فَإِنْ رَجَعَ فَالْحَقُّ عِنْدَ أَصْحَابِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ دُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَالْفَائِدَةُ فِيهَا مَعْرِفَةُ الْحَادِثِ فِي حِينٍ وَصُولِهِ لِمَوْضِعِهِ الذَّاتِي وَالْحَادِثِ فِي حِينٍ انْتِهَائِهِ فِي الْاسْتِقَامَةِ وَالرَّجْعَةِ، وَهُوَ آلَانِ فِي الْاسْتِقَامَةِ إِلَى نِهَائِهِ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْرَارِ وَالْأَمْرِ قَرِيبٌ وَهُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ مَخُوفٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ بِهِ الْأَرَاجِيْفُ وَالنُّذُرُ وَخَلَدَتْ فِيهِ الْعُلَمَاءُ التَّذَاكِرَ وَالْعِبَرَ، وَعِنْدَ الْوُقُوفِ عَلَى مُعَايِنَتِهِ يَصِحُّ الْحَقُّ فَإِنَّهَا مَسْأَلَةٌ مُشْكِلَةٌ بَيْنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ⁽²⁾.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ⁽³⁾ : وَفِي كِتَابِ السُّنَدِ هِنْدِ الَّذِي عُمِلَ مِنْهُ كِتَابُ الْمَجِسْطِي وَغَيْرُهُ أَنَّ أَوَّلَ دَوْرَانِ الشَّمْسِ مِنْ أَوَّلِ مَسِيرِهَا مِنَ الْحَمَلِ إِلَى انْقِضَاءِ مَسِيرِهَا آخِرَ الْأَبَدِ عَلَى مَا حَسَبُوهُ وَأَخَاطُوا عِلْمًا بِهِ بِزَعْمِهِمْ أَرْبَعَةَ آلَافِ أَلْفٍ وَأَرْبَعُ مَائَةِ أَلْفِ أَلْفٍ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفٍ دَوْرَةَ وَالِدَوْرَةِ فِي سَنَةٍ.

وَالْجُمْهُورُ مِنَ النَّاسِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ مُعْتَقِدُونَ أَنَّ الْعَالَمَ مُحْدَثٌ إِلَّا مَا قَالَهُ أَرِسْطَطَالِسُ مِنْ أَنَّ الطَّبِيعَةَ قَدِيمَةٌ وَأَنَّ الزَّمَانَ لَا يَبِيدُ وَأَنَّهُ لَا أَوَّلَ لَهُ وَلَا آخِرَ، وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْهِنْدِ، وَقَالَ نَفَرٌ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ : الْعَالَمُ مُحْدَثٌ وَلَكِنَّهُ لَا يَبِيدُ لِأَنَّهُ حِكْمَةٌ حَكِيمٍ وَالْحَكِيمُ لَا يُفْسِدُ حِكْمَتَهُ⁽⁴⁾.

قَالَ النَّاطِرُ : فَيَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَتَفَهَّمَ كُلَّ قَوْلٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ وَيَسْتَخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ تَرْكِيبِ الْمَعَانِي بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ فَيَفْهَمُ حَيْثُ الْقَدِيمَ وَالْمُحْدَثَ، وَلْيَعْلَمْ الْعَاقِلُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ حَيٌّ عَالِمٌ... فَمَنْ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ فَقَدْ صَحَّ إِسْلَامُهُ وَبَرِيَءَ مِنْ قَوْلِ الطَّوَائِفِ.

الاستبصار المخطوط 27-28

(2) آخر كلام الناظر.

(3) هو البكري (المخطوط المذكور).

(4) آخر كلام البكري.

2 - خطاب⁽¹⁾ الحليفة عبد المؤمن بفتح مراكش

يَوْمَ السَّبْتِ 18 شَوَّالِ سَنَةِ 541 هـ

مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْدُهُ اللَّهُ بَصَرُهُ، وَأَمَدُهُ بِمَعُونَتِهِ، إِلَى الطَّلَبَةِ وَالْمُوحِدِينَ وَالْكَافَّةَ بِمُكْنَسَةِ أَدَامَ اللَّهُ كَرَامَتَهُمْ بِتَقْوَاهُ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَالِيَةِ كَلِمَتُهُ، الشَّامِلَةُ نِعْمَتِهِ، الَّذِي لَمْ يَزَلْ لِأَوْلِيَائِهِ عَاصِمًا، وَلِأَعْدَائِهِ قَاصِمًا، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فَاصِمًا، وَرِضْوَانُهُ عَلَى سُلَالَتِهِ الْإِمَامِ الْمُعْصُومِ، الْمَهْدِيِّ الْمَعْلُومِ، الَّذِي كَانَ لَهْدْيِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُلَازِمًا، وَبِقِسْطِ عَدْلِهِ قَائِمًا.

وَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ لِأَزَلَّتِ الْمَسَارَرُ تَرَدُّدُكُمْ، وَالبَشَائِرُ تَعْتِمِدُكُمْ، وَجَنَابُنَا بِدَيْمِ نِعْمَةِ اللَّهِ حَظِيلٍ، وَمُقَامُنَا بِتَرَادُفِ الْفُتُوحَاتِ الْجَمَّةِ هَظِيلٍ، إِثْرُ مَا يَسْرُهُ سُبْحَانَهُ مِنْ فَتْحِ الْفُتُوحِ بِمَرَكَشِ الَّذِي تَفْتَحَتْ لَهُ عَيْنُ الزَّمَانِ، وَتَهَلَّلَ لَهُ وَجْهُ الْأَمَانِ، وَقَرَّتْ بِهِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْأَبْصَارُ، وَدَانَتْ لَهُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ الْأَقَالِيمُ وَالْأَمْصَارُ؛ وَشَرَحَ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَرَادَ قَطْعَ مَادَّةِ الْفَسَادِ وَتَبَّ دِعَامَةَ الْبَغْيِ وَالْعِنَادِ، حَرَكَ عَزْمَنَا إِلَى نِزَالِهَا وَالزَّيْمَ قُلُوبَنَا تَطْهِيرِ الْأَرْضِ مِنْ أَرْذَالِهَا، فَعَزَمَتْ عَلَيْنَا ذَلِكَ آرَاؤُنَا، وَصَمَّمْ عَلَيْهِ بَعُونَ اللَّهُ ابْتِدَاؤُنَا وَانْتِهَاؤُنَا، فَنَزَلَ حَزْبُ اللَّهِ بِسَاحَتِهَا، وَاخْتَطَّ الْأَيْبَةُ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ بِمَسَاحَتِهَا، فَعِنْدَمَا عَايَنَ أَهْلُهَا ذَلِكَ، قَدَفَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرُّغْبِ مَا أَتَقَنَ بِهِ مَلِكُهُمْ أَنَّهُ هَالِكٌ، وَعَلِمُوا أَنَّ نُزُولَ أَوْلِيَائِهِ اللَّهِ بِسَاحَتِهِمْ، مُؤَذِّنٌ لَا حَالَةَ بِاسْتِحَالَتِهِمْ وَاسْتِبَاحَتِهِمْ، وَسَقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَلَمْ يَسْمَعُوا مَنْ يُنَادِيهِمْ، فَأَقَمْنَا لِحَصْنِهِمْ مُحَاصِرِينَ، وَمِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ لَهُمْ قَاصِدِينَ، وَمَالَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ، وَالتُّحُوسُ تَجَدَّدُ عَلَيْهِمْ بُرُودُهَا، وَكَلِمَةُ الْخِزْيِ الَّتِي حَقَّتْ بِهِمْ مَعَ السَّاعَاتِ تُطْلَعُ عَلَيْهِمْ وَفُودُهَا، وَنَصْرُ اللَّهِ تَعَالَى لَنَا يَمْضِي مَضَاؤُهُ، وَنَقْضِي بِأَسْيَافِنَا فِيمَنْ يُبْرِزُهُ إِلَيْنَا مِنْهُمْ قَضَاؤُهُ، إِلَى أَنْ لَمْ يَشْكُوا فِي ذَهَابِ رِيحِهِمْ وَفَشْلِهِمْ، وَأَتَّهُمْ إِنْ خَرَجُوا فَلَيْسَ إِلَّا

(1) لم نقف على هذا الخطاب في غير المرجع، فتح مراكش مفصل في «البيان المغرب» (قسم الموحدين) :

لَا سَتَجِدُ جَالِ أَجَلِهِمْ، فَأَرَوْا عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ حِذَارِهِمْ، أَلَّا يَقَاتِلُوا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِذَارِهِمْ،
 ظَنًّا أَنْ تَمْنَعَهُمْ حُصُونُهُمْ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ تَكْذِبَ ظُنُونُهُمْ، وَتَسْخَنَ بِإِقْرَارِ عَيْنِ أَوْلِيَاءِ
 اللَّهِ عُيُونُهُمْ، فَقَارَبْنَاهَا بِبُيُوتِ اللَّهِ مُتَبَرِّكِينَ، وَعَلَى حُسْنِ عَوْنِهِ الْمَعْرُوفِ مُؤَرِّكِينَ،
 وَالْأَقْدَارِ تَبْتَدِرُ إِمْضَاءَ عَزْمِنَا، وَالتَّوْفِيقِ يُوثِقُ إِبْرَامَ حَزْمِنَا، وَأَخَذْنَا بِخَنَاقِهِمْ، وَأَحْدَقْنَا
 بِجَمِيعِ آفَاقِهِمْ، حَتَّى لَا يَنْفُذَ عَلَيْهِمْ مِنْ خَارِجِ السُّورِ إِلَّا سَهْمٌ صَائِبٌ، أَوْ مَا تَشِيبُ
 لَهُ مِنْهُمْ الدَّوَابُّ، فَتَجَرَّعَ الْكَفَرَةَ لِذَلِكَ صَابَا، وَقَدْ كَانُوا لَقُوا مِنْ شِدَّةِ الْحَصْرِ آلَمًا
 وَأَوْصَابَا، وَأَقَامُوا كَذَلِكَ يَمُوجُونَ بَيْنَ الْجُدُرَانِ فَوْضَى، حَتَّى أَكَلَ بَعْضُهُمْ مِنْ شِدَّةِ
 الْجُوعِ بَعْضًا، وَمَعَ كُلِّ ذَلِكَ فَمَا هَدُّوا إِلَى الْاسْتِبْصَارِ، وَلَا وَقَفُوا عَلَى الْفَيْءِ إِلَى
 إِبْصَارِ، وَلَمْ يَزِدُوا إِلَّا تَسْوِيلًا، وَلَا أَمَلَى لَهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا تَغْيِيرًا وَتَضْلِيلًا، حَتَّى
 إِذَا تَمَّ الْأَمَدُ، وَأَرَادَ تَعَالَى أَنْ يُنْجِزَ لَنَا مِنْهُمْ مَا وَعَدَ، أَغْرَى بِهِمْ عُصْبَةً مِنْ وَلَدَانِ
 الْمُؤَحِّدِينَ وَخَفَدَتِهِمْ، وَحَرَّضَ عَلَيْهِمْ زُمْرَةً مِنْ أَصَاغِرِ الْعَرَاةِ وَشَبَابِهِمْ، فَجَعَلُوا
 يَتَبَدَّرُونَ مَرَاكِزَهُمْ [الْأَمَامِيَّةَ بِالْفُؤُوسِ وَالْمَعَاوِلِ] وَيَقْدِفُونَهُمْ بِمَا أَمَكَّنَ مِنَ الْجَنَادِلِ،
 حَتَّى كَسَرُوا مَا كَانُوا أَعْدُوهُ لِقِتَالِنَا عَلَى أَسْوَارِهِمْ مِنَ السَّرَادِقَاتِ وَحَطَّمُوهَا، وَهَشَمُوا
 مَا كَانَ عَلَى أَعْلَى السُّورِ مِنَ تِلْكَ الْأُتُنِيَّةِ وَهَدَّمُوهَا، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ لَهُمْ دَابًّا، حَتَّى
 ثَلَمُوا فِي أَشْبَارَاتِ السُّورِ ثَقْبًا، فَأَيَّقَنَ عِنْدَ ذَلِكَ الْمُؤَحِّدُونَ وَقَفَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُ قَدْ تَيَسَّرَ
 عِلَاجُهَا، وَانْفَتَحَ لَا حَالَةَ رِتَاجُهَا، فَهَضَمُوا إِلَيْهِمْ مُسْرِعِينَ، وَلِلتَّوْفِيقِ فِي حَزْمِهِمْ وَعَزْمِهِمْ
 مُبْصِرِينَ وَمُسْتَمِيعِينَ، فَاهَبَ اللَّهُ تَعَالَى رِيحَ نَصْرِهِ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِ الْكَفَرَةِ بِمَا أَرَادَهُ
 مِنْ قَهْرِهِ، فَيَسُّوْا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ فَرَاغٍ أَيَّامِهِمْ، وَاسْتَبَعَدُوا كُلَّ أَمَلٍ إِلَّا حَتْمَ
 حِمَامِهِمْ، فَوَلَّوْا أَدْبَارَهُمْ، وَأَهْمَلُوا لِلْحَيِّينِ سُورَهُمْ، وَنَصَبَ الْمُؤَحِّدُونَ أَيْدِيَهُمُ اللَّهُ
 سَلَالِيمَ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ، وَجَعَلُوا يَتَسَبَّبُونَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِ جَنَبَاتِهِ فَلَمَّا أَبْصَرَهُمُ الْكَفَرَةُ
 عَلَى مُسْتَوَاهِ، أَيَّقَنُوا أَنََّّهُمْ قَدْ مَلَكَوْهُ وَمَا حَوَاهِ، فَانْهَزَمُوا فِي دَاخِلِ الْبَلَدِ فَارِّينَ، وَانْجَفَلُوا
 عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ مَارِّينَ، وَالرَّمَاخَ إِلَى صُدُورِهِمْ تُشْرَعُ، وَالصُّوَارِمُ فِي دِمَائِهِمْ تَكْرَعُ،
 وَغُيُونُ الْمَنَآيَا تَرْتَصِدُهُمْ، وَأَيْدِي الْحُتُوفِ تَحْصِدُهُمْ، فَمَا شَبَّتْ مِنْ رُؤُوسٍ تَبَّتْ، وَدِمَاءُ
 تُهْدَرُ، حَتَّى دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَبْوَابِهَا قَسْرًا، وَفَتَحَ اللَّهُ مَغَالِيقَهَا عَنَوَةً وَقَهْرًا، دُونَ مُوَاطَئَةٍ
 مِنْ أَحَدٍ يَسْتَوْجِبُ عَلَيْهَا شُكْرًا، وَيَرْجُو بِهَا عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَجْرًا، فَأَيَّقَنَ عِنْدَ ذَلِكَ
 الشَّقِيَّ إِسْحَاقَ، أَنَّ الْبَلَاءَ قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَحَاقَ، وَأَنَّهُ فِي عَيْنِ الْهَلَكَةِ وَالْإِمْحَاقِ، وَمَلَكَتُهُ
 الرُّغْدَةُ فَخَابَ مَسْرَاهُ، وَلَمْ يَعْرِفْ يَمْنَاهُ مِنْ يُسْرَاهِ، فَطَارَ هُوَ وَخَاصَّتُهُ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ
 بِأَجْنَحَةِ الْخَوْفِ مَذْعُورِينَ، بَلْ مَسْعُورِينَ، حَتَّى أَتَوْا دَارَ اللَّعِينِ، أَبِيهِ عَلِيَّ بْنِ يُوسُفَ

بْنِ تَاشِفِينَ بِأَجَادِيرٍ، لِيَتَحَصَّنُوا بِهَا مِنْ حُتُوفِ الْمَقَادِيرِ، فَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ بِكُلِّ مَرْقَبٍ وَمُرْصَادٍ، وَضَمُّوا إِلَيْهِمْ مَا أَعَدَّوَهُ مِنَ الْأَجْنَادِ، عَلَى أَتَمِّ التَّهَمُّمِ وَأَكْمَلِ الْاِحْتِشَادِ، فَمَا زَالُوا يُجَرِّعُونَهُمْ غُصَصَ الْمَنَايَا حَتَّى قَضَتِ السُّيُوفُ مِنْهُمْ أَوْتَاطَرَهَا، وَبَرَدَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ غَلِيلُهَا وَ أَوَارَهَا، وَانْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ، وَرَأَوْا الْمَنَايَا إِلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ تُسَاقُ، فَلَمَّا عَايَنُوا ذَلِكَ جَعَلُوا يَسْتَبِقُونَ إِلَى آجَالِهِمْ، وَيَسْتَعْجِلُونَ الْمَنَايَا بِاسْتِسْالِهِمْ، فَلَا تُبْصِرُ مِنْهُمْ إِلَّا مُجَدَّلًا أَوْ صَرِيْعًا، وَلَا تُشَاهِدُ فِيهِمْ إِلَّا مَنْظَرًا فُطِيْعًا، حَتَّى فَنَوْا عَنْ آخِرِهِمْ، وَأَتَى الْقَتْلُ عَلَى سَائِرِهِمْ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَتِهِمْ مِمَّنْ لَهُ اسْمُ الرَّعَامَةِ فِيهِمْ بَنُو عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ يُوسُفَ وَأَرْبَعَةٌ مِنْ بَنِي أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ يُوسُفَ وَابْنُ لِمُحَمَّدٍ وَابْنُ لَتَمِيمٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَنُونَةَ، وَابْنُ أَنْجَمَارٍ، وَسِيرُ بْنُ عَلِيٍّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُتْنَانَ وَمُحَمَّدُ بْنُ حَوَاءَ وَأَبُو غِيلَانَ، وَبَقِيَ إِسْحَاقُ فِي شِرْذِمَةٍ سِوَى هَؤُلَاءِ، وَهُمْ تَاشِفِينَ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ وَسِيرُ بْنُ الْحَاجِّ وَأَبُو بَكْرٍ ابْنُ الْحَاجِّ وَمُحَمَّدُ بْنُ أَجَانَا وَدَاوُدُ بْنُ عَزَّةٍ فَأَخَذَ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورُونَ مَعَ الشَّقِيَّ إِسْحَاقَ مَاسُورِينَ مُقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ، فَأَقَامُوا كَذَلِكَ وَنَارُ الْغَلِّ تَشِبُّ مِنْهُمْ عَلَى الْأَكْبَادِ، بَعْدَمَا عَرِضُوا عَلَى الْمَوْتِ عَرَضَ الْمُحْتَضِرِ، ثُمَّ وَخَرُوا إِلَى الْأَجَلِ الْمُنْتَظَرِ، فَأَقَامُوا كَذَلِكَ أَيَّامًا خَزَايَا، لَا يُعْدَمُونَ رَزَايَا، وَلَا يَفْقِدُونَ بَلَايَا، قَدْ أَسْلَمَتْهُمْ جَرَائِمُهُمْ وَأَوْبَقَتْهُمْ كِبَائِرُهُمْ، حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ بِفَرَاغِ أَيَّامِهِمْ، فَتَمَّتْ مَدَّتُهُمْ وَحَانَ حِينُ حِمَامِهِمْ، فَأَتْبَعْنَاهُمْ شِيْعَتَهُمُ الدِّمِيْمَةَ، وَأَذَقْنَاهُمْ مِنَ الْقَتْلِ فُطِيْعَهُ وَالْيَمَةِ، وَأَرَاخَ اللَّهُ مِنْهُمْ مَدِيْنَتَهُمْ وَعَوَّضَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا سَخِيْمَتَهُمْ، وَأَصْبَحَ الْبَاطِلُ مَصْرُوعًا، وَأَنْفَهُ مُصْطَلَمًا مَجْدُوعًا، يَأْسًا مِنْ أَنْ يَنْفَقَ لَهُ بَعْدَ سُوقٍ، أَوْ يَكُونَ لَشَمَرَتِهِ الْمُحْتَنَّةِ بُسُوقٌ، وَانْقَلَبَ الْمُوَحِّدُونَ وَفَقَّهُمُ اللَّهُ مَنْصُورِينَ، وَبِالْأَجْرِ وَالْغَنِيْمَةِ وَالْمِنْحَةِ الْعَظِيْمَةِ مَجْبُورِينَ، لَمْ يَمْسَسْنَهُمْ قَرْحٌ، وَلَمْ يُصِيبْهُمْ بَرْحٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ بِلَا انْقِطَاعٍ، وَلَهُ الشُّكْرُ بِأَيْلَافٍ مَا يُسْتَطَاعُ، وَخَاطِبُنَاكُمْ وَفَقَّكُمْ اللَّهُ بِهَذِهِ الْمَنْقَبَةِ الَّتِي خُصَّ حَزْبُ اللَّهِ بِمِنْحَتِهَا، وَأَهْلُ الْبَاطِلِ بِمُحَنَّتِهَا، لِتَعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَدَيْنَا مِمَّنْ يُحْتَصَّ بِبُشْرَاهَا، وَيُصْبِرُهَا بِمَا بِهِ تُبْصِرُهَا أَمْصَارُنَا وَقُرَاهَا، فَقَابِلُوا مِنَ الشُّكْرِ الْعَمِيمِ بِمُقْتَضَاهَا، وَادَّابُوا عَلَى حَمْدِ مَنْ أَوْلَاهَا، وَاللَّهُ يُوفِّقُ الْجَمِيعَ إِلَى مَا يَكُونُ لَهُذِهِ النِّعْمَةُ جَزَاءً، وَلِعَلِّي رُبَّتِيهَا أَدَاءً، بِعِزَّتِهِ، وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

3 - مِنْ أَغْلَامِ فَاسٍ فِي عَهْدِ الْمُرَابِطِينَ

«وَذَكَرْنَا أَيْضاً أَنَّهُ كَانَ فِي الدَّوْلَةِ اللَّمْتُونِيَّةِ رِجَالٌ فَضْلَاءَ، عُقْلَاءَ عُلَمَاءَ حُلَمَاءَ، وَشَهْرَتُهُمْ فِيهَا أَغْنَتْ عَنْ ذِكْرِهِمْ، لَكِنِّي أَذْكَرُ مَنْ تَخَلَّدَتْ مَآثِرُهُ، وَبَقِيَتْ عَلَى مَرِّ الْأَزْمَانِ مَفَاخِرُهُ، ... وَهُوَ الْفَقِيهُ الْقَاضِي أَبُو مُوسَى ابْنُ يُوسُفَ بْنِ عِيسَى قَاضِي الْجَمَاعَةِ⁽¹⁾. وَعِيسَى [جَدُّهُ] ابْنُ عَلِيٍّ بْنِ يُوسُفَ بْنِ عِيسَى بْنِ قَاسِمِ الْمُلَقَّبِ بِالْمَلْجُومِ ابْنِ عِيسَى بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ مُصْنَعٍ بْنِ عُمَيْرٍ بْنِ مُصْنَعٍ الزَّهْرَانِي الْأَزْدِي مِنْ أَزْدِ شَتْوَةِ سَكَّانِ جَبَلِ السَّرَاةِ بِأَرْضِ الْحِجَازِ، وَعُمَيْرُ بْنُ مُصْنَعٍ هَذَا هُوَ الدَّاجِلُ لِلْمَغْرِبِ صُحْبَةَ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَكَانَتْ ذُرِّيَّتُهُ فِي هَذَا الْقَطْرِ تُعْرَفُ بِبَنِي مُصْنَعٍ وَأَمْلَاكُهُمْ، بِهَا إِلَى الْآنَ تُعْرَفُ بِاسْمِ بَنِي مُصْنَعٍ وَهِيَ فِي أَيْدِيهِمْ إِلَى هُلُمٍ [بَلْ حَدَّثَ عَلَيَّ بَنِي مُصْنَعٍ اسْمُ الْمَلْجُومِ بِقَاسِمِ بْنِ عِيسَى الْمَذْكُورِ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِتَوْقِفِ كَانَ فِي كَلَامِهِ مِنْ عِلَّةٍ عَرَضَتْ لَهُ فِي صِغَرِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ].⁽²⁾

أَخْبَرَنِي⁽³⁾ الشَّيْخُ الْفَقِيهُ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ الْفَقِيهِ الْقَاضِي أَبِي مُوسَى الْمَذْكُورِ أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ مُصْنَعٍ الْمَذْكُورَ نَزَلَ حِينَ وَصُولِهِ الْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ إِلَى الْآنَ بِعَيْنِ عُمَيْرٍ، وَتَخَلَّفَ عَنْ أَمْرِ وَالِيهِ مُوسَى مَعَ سِوَاهُ فِي الْمَغْرِبِ لَمَّا مَرُّوا بِالْمَوْضِعِ الْمَذْكُورِ فَاسْتَوْطَنُوا هُنَالِكَ وَأَنْسَلَ بَنُوهُ، فَهُمْ مَنْ ذَكَرْنَا، وَلَمَّا أَرَادَ إِدْرِيسُ الْمَذْكُورُ أَنْ يَبْنِيَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ أَبْتَدَأَ بِبَنِيَانِ فَاسٍ الْقَدِيمِ الْمَشْهُورِ فَقَالَ لَهُ أَحَدُ بَنِي مُصْنَعٍ قِيلَ إِنَّهُ فَتَنَرُوسُ الْمَذْكُورُ : هَذَا مَوْضِعٌ وَحِمٌ وَالَّذِي يَصْلُحُ لِبِنَاءِ الْمَدِينَةِ أَعْرِفُهُ فَأَوْصَلَهُ إِلَى غِيْضَةٍ كَثِيرَةِ الْعُيُونِ، وَهِيَ حَوْمَةٌ مَسْجِدِ الشُّرَفَاءِ الْآنَ فَبَنَى

(1) انظر ترجمته ومصادرهما في «الذيل والتكملة» 8 : 258-259.

(2) انظر في بني الملجوم ببوتات فاس و«روض القرطاس» و«جذوة الاقتباس».

(3) كذا في الأصل والصواب عبد الرحيم، وله ترجمة وذكر في التكملة رقم 1974 والصلة لابن الزبير (مخطوط).

و«جذوة الاقتباس» رقم 432 والذيل : 8 : 258.

الْمَدِينَةَ أَعْرِفُهُ فَأَوْصَلَهُ إِلَى غِيْضَةِ كَثِيرَةِ الْعُيُونِ، وَهِيَ حَوْمَةُ مَسْجِدِ الشُّرَفَاءِ الْآنَ فَبَنَى فِيهَا الْمَدِينَةَ، وَكَانَ حَدُّ سُورِهَا مِنْ بَابِ إِفْرِيقِيَّةَ إِلَى بَابِ الْقَوْسِ إِلَى بَابِ السِّلْسِلَةِ إِلَى الْجُرْفِ رَاجِعاً إِلَى بَابِ إِفْرِيقِيَّةَ⁽⁴⁾.

وَنَظَّمَ الشَّيْخُ الْفَقِيهُ الْكَاتِبُ أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي زَكَرِيَاءَ الْهَاشِمِيِّ⁽⁵⁾ يَمْدَحُ الشَّيْخَ الْفَقِيهَ الْقَاضِيَّ أَبَا مُوسَى عَيْسَى بْنَ يَوْسُفَ قَاضِيَّ الْجَمَاعَةِ الْمَذْكُورَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ :

قَاضٍ يَحِيطُ الْمُسْلِمِينَ بِعَدْلِهِ	فَالْعُرْفُ يُعْرِفُ وَالْمَنَاصِرُ تَنْكَرُ
نَذِبَ أَغْرٌ مِنَ الْقَضَاةِ مُحَجَّلٌ	قَدْ طَابَ مِنْهُ الْمُتَمَتَّى وَالْمُنْظَرُ
بَرٌّ بِكُلِّ مَنْ اسْتَقَامَ وَمَنْ طَعَى	فَالسَّوْطُ مِنْهُ عَلَى الطُّغَاةِ مُسَخَّرُ
أَبْدَأَ يَرُوعُ الظَّالِمِينَ بِدَغْوَةٍ	هِيَ فِي حَشَا مَنْ لَا يَعِيهَا خَنْجَرُ
عَزَمَاتُهُ فِي اللَّهِ فَاتِكَةٌ بِهِمْ	فَكَأَنَّهُنَّ أَسِنَّةٌ وَسَنَوْرُ
قَدْ نَابَ عَنْهُ الرَّغْبُ مِنْهُ نِيَابَةٌ	مَا نَابَهَا تَحْتَ أَلْوَاءِ الْعَسْكَرُ
لِلْخَوْفِ مِنْهُ عَلَى عَدَالَةِ حُكْمِهِ	سُرَّ يَبُوحُ بِهِ الْأَمَانُ فَيُظْهَرُ
رَدَّ الْمَظَالِمَ غَيْرَ ظَلَمٍ أَصْلُهُ	جِدَّ بِهِ غَيْدٌ وَطَرْفٌ أَخَوْرُ
عَفَّتْ شَمَائِلُهُ قَتَمَ قَضَاؤُهُ	إِنَّ الْقَضَاءَ بِلَا عَفَافٍ أَتْرُ
تَرَدُّ الْوُفُودُ وَتَنْتَبِي عَنْ دَارِهِ	وَالْمَسْكُ مَا يَسْتَوْنُهُ وَالْعَتَبُ
يَذَرُونَهُ قَدْ صَامَ عَنْ أُمُورِهِمْ	وَجَمِيعُهُمْ مِنْ مَالِهِ قَدْ أَفْطَرُوا
حَرُمَتْ مُحَابِرَاتُ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا	لَحْمُ الْقَضَاةِ مِنَ الْمَحَابِرِ حَذَرُوا
فَكَأَنَّ مَخْبِرَةَ الْكِتَابَةِ مِثْلُهُ	وَكَأَنَّ مَخْبِرَةَ الْمَنَاصِحِ مَسِيرُ
هَذَا الَّذِي مِنْ يَوْمٍ أَصْبَحَ قَاضِيًا	فَضَّتْ الْمَحَارِمُ نَجْبَهَا وَالْمُسْكِرُ
هَذَا الَّذِي مُذْ حَلَّ فِي مَكْنَسَةٍ	كَنَّسَ الْفَسَادَ فَلَا فِسَادَ يَظْهَرُ
هَذَا الَّذِي طَلَبَ اللَّصُوصَ قَرَدَهُمْ	عَسَسَا تَهَانِيَهُمُ اللَّصُوصُ وَتَحَذَرُ
هَذَا الَّذِي رَدَعَ الْفُجُورَ بِأَرْضِهِمْ	رَدَعَا وَأَنَارَ الْفُجُورِ تَفْجَرُ

(4) باب إفريقية هو أول باب أحدث بالمدينة الإدريسية ولم يعد معروفاً اليوم. انظر «جدوة الاقتباس» : 33 وتعليق الأستاذ السيد عبد الوهاب بن منصور أما باب السلسلة فما يزال موجوداً.

(5) لم ننف بعد البحث على ترجمة هذا الأديب الشاعر.

هَذَا الْفَتَى فِي سِتِّهِ هَذَا الرُّضَى فِي دِينِهِ هَذَا الشُّهَابُ الْأَنْوَرُ
 هَذَا النَّقِيُّ مِنَ الْغُيُوبِ بِأَسْرِهَا هَذَا الْإِمَامُ الْفَاضِلُ الْمُتَخَيَّرُ
 هَذَا الْفَقِيهَ بَنُ الْفَقِيهِ بْنِ الْفَقِيهِ بَنُ الْفَقِيهِ لِعَايَةِ لَا تُخْصَرُ
 بِكَ يَا أَبَا مُوسَى سَمَوْتُ إِلَى الْعُلَى فَأَنَا الَّذِي أَثْنِي عَلَيْكَ وَأَشْكُرُ
 وَأَنَا الَّذِي أَجْزِيكَ وَدَأَّ صَافِيَا تَتَغَيَّرُ الدُّنْيَا وَلَا يَتَغَيَّرُ
 تَا اللَّهُ أَلْقَى اللَّهُ يَوْمَ لِقَائِهِ إِلَّا وَشَخْصُكَ فِي الْفُؤَادِ مُصَوَّرُ
 لَا زَالَ قَدْرُكَ فِي اغْتِلَاءِ وَالْوَرَى أَسْطَارَ مَدْحِكَ فِي الْقُلُوبِ تُسَطَّرُ

قَالَ التَّائِبُ : وَلَوْلَا أَنْ أُخْرِجَ عَنْ قَصْدِ الْوَضْعِ لَأُورِدْتُ مِنْ مَفَاخِرِ هَذَا الْفَقِيهِ الْقَاضِي
 رَحِمَهُ اللَّهُ وَمَفَاخِرِ الْمُعَاصِرِينَ لَهُ مَا يُرَبِّي عَلَى كُلِّ مَفْخَرٍ سِوَى الْإِئْصَالِ بِسُلَالَةِ النَّبَوَّةِ، كَيْفَ
 وَوَاضِعِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ فَاطِمِي النَّسَبِ عَلَوِي الْحَسَبِ حَسَنِي الْمَذْهَبِ فَكَيْفَ يُعَابُ أَهْلُهَا.

الاستبصار المخطوط : 118-120

4 - أَعْمَالُ عُمَرَانِيَّةٍ فِي سَبْتَةِ أَيَّامِ الْمُوحِّدِينَ

وَأَمَرَ الْخَلِيفَةُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو يَعْقُوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَنَةَ ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ بِجَلْبِ الْمَاءِ إِلَيْهَا مِنْ قَرْيَةِ بَلْيُونَشَ عَلَى سِتَّةِ أَمْيَالٍ مِنْ سَبْتَةِ فِي قَنَاةٍ تَحْتَ الْأَرْضِ حَسَبَمَا جَلَبَهُ الْأَوَائِلُ فِي قَنَاةٍ قَرَطَاجَنَّةَ وَشُرِعَ فِي الْعَمَلِ حَتَّى عَرَضَتْ أُمُورٌ أَوْجَبَتْ التَّرَبُّصَ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ تَعَالَى وَالرَّجَاءُ الْآنَ مُؤَمَّلٌ وَنَحْنُ فِي سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَلَى بِهَا مَنْ يَنْظُرُ فِي شُغْلِ الْبَحْرِ وَإِنْشَاءِ الْمَرَائِبِ وَغَزْوِ الْعَدُوِّ وَصَرَفَ إِلَيْهِ فِيهِ النَّظَرَ فِي مَصَالِحِ الْبَلَدِ فَأَقَامَ الْأَمْرُ الْعَالِي قَرْيَةَ بَلْيُونَشَ وَدِيَاراً مُطَلَّةً عَلَى بَحْرٍ بِسُورٍ بِغَرْبِي الْجَامِعِ، فَرَبَّمَا سَعَى فِي جَلْبِ الْمَاءِ وَاللَّهُ يُعِينُهُ، وَهُوَ الشَّيْخُ أَبُو زَكَرِيَاءَ ابْنُ الشَّيْخِ الرَّضِيِّ أَبِي إِبْرَاهِيمَ⁽¹⁾ صَاحِبِ الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَشَأَ الْخِلَافَةَ وَرَبَّى الْإِمَامَةَ، وَهُوَ فِي عَامِنَا هَذَا صُحْبَةَ الْخَلِيفَةِ أَبِي يُوسُفَ مُحَاصِرِينَ لِلْأَعْدَاءِ بِلَادِ الرُّومِ مِنْ غَرْبِ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ، وَرَجَعَ مِنَ الْغَزْوِ وَهُوَ مُغْتَبِطٌ بِهَذِهِ الْقَرْيَةِ لِشَرَفِهَا وَعِظَمِ قَدْرِهَا وَلَيْسَ لَهَا عَدِيلٌ إِلَّا دِمَشْقُ..

الاستبصار المخطوط : 78

(1) راجع فيه وفي أبيه «المعجب» : 233-34 وأخبار المهدي للبيدق : 30، 31، 33، 34، 36، 42، 43،

